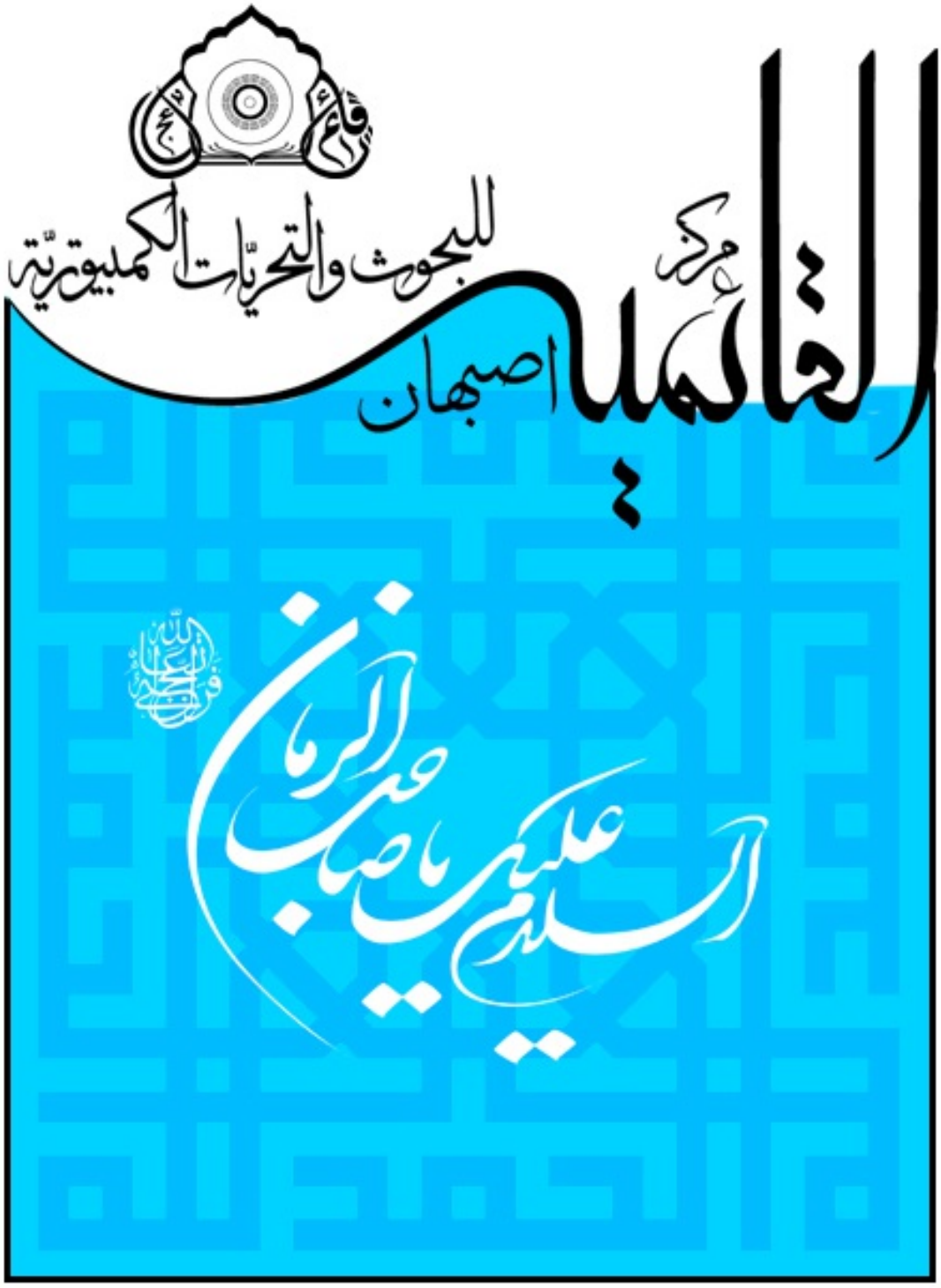

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

التوابون

ابراهيم بيضون

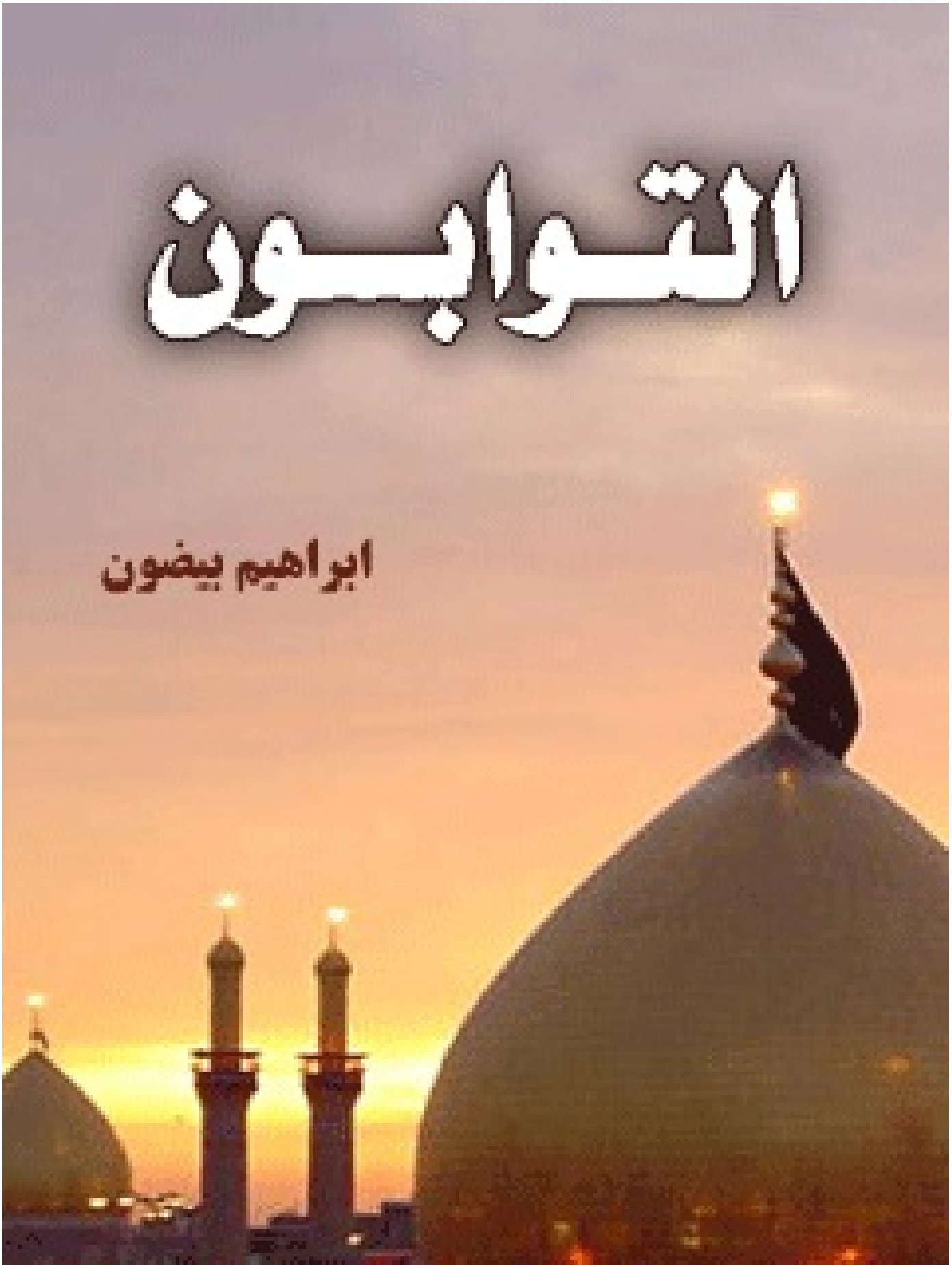

بسم الله الرحمن الرحيم

التوابون

كاتب:

إبراهيم بيضون

نشرت فى الطباعة:

إبراهيم بيضون

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
التوابون ----- ۷
اشارة ----- ۷
الاهداء ----- ۷
المقدمة ----- ۷
الحکم بعد محمد ----- ۸
اشاره ----- ۸
قیام مؤسسة الخلافة و تطورها السیاسی ----- ۱۰
علی والخلافة ----- ۱۳
الاحوال السیاسیة منذ اغتیال علی إلی کربلاء... ----- ۱۵
اشاره ----- ۱۵
معاویة و تحویل الخلافة الی ملک وراثی ----- ۱۶
الاحوال السیاسیة داخل العراق ----- ۱۷
خلافة یزید و تحرک الحسین ----- ۱۸
تضعضع الاحوال السیاسیة فی نهایة عهد یزید ----- ۲۱
التوابون (الشعور بالذنب والتقصیر) ----- ۲۴
اشاره ----- ۲۴
مؤتمر الزعماء الخمسة ----- ۲۵
الاتصالات ----- ۲۷
بدء التحرک و ظهور المختار ----- ۲۸
التحرک ----- ۳۱
التقدم نحو الشام ----- ۳۴
معرکة عین الوردة ----- ۳۶

النتائج ----- ۳۹

پاورقی ----- ۴۴

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۵۴

التوابون

اشارة

نوع: کتاب
پدیدآور: بیضون، ابراهیم۱۹۴۶- م.
عنوان و شرح مسئولیت: التوابون [منبع الکترونیکی] / تالیف إبراهیم بیضون
ناشر: موسسه تحقیقات و نشر معارف اهل البیت(ع)
توصیف ظاهری: ۱ متن الکترونیکی: بایگانی HTML؛ داده های الکترونیکی (۱۷۵ بایگانی: ۳۵۳.۶KB)
یادداشت: کتابنامه به صورت زیرنویس
موضوع: تاریخ

الاهداء

الی روح ابیالتی لا تزال مصدر الهام لی ومنبع عطاء..اقدم هذا الکتاب الذی هو نفحة من ذلک الالهام وبعض من ذلک العطاء.ابراهیم [صفحه ۵] بسم الله الرحمن الرحیم«اللهم انا قد خرجنا من الدیار والاموال. وفارقنا الاهلین والاولاد، نرید جهاد الفاسقین المحلین الذین قتلوا ابن بنت نبیک فتب علینا وارزقنا الشهادة یا أرحم الراحمین.اللهم انّا نعلم انه لو کان الجهاد منهم بمطلع الشمس أو بمغرب القمر أو بمنقطع التراب لکان حقیقاً علینا أن نطلبه حتی نناله فان ذلک هو الفوز العظیم والشهادة التی ثوابها الجنة».عن الفتوح لابن الاعثم الکوفی

المقدمة

ان تاریخنا العربی حافل بالکثیر من الشخصیات الفذة التی ساهمت بمواقفها البطولیة وتضحیاتها الرائعة فی صنع هذا التاریخ. بید أن فئة غیر قلیلة من هؤلاء، لم نجد لها محلاً لائقاً فی مجالات التقییم والنشر، فظل بعضها مطموساً فی صفحات الکتب القدیمة، والآخر تناولته الاقلام بشکل عابر، فما زادت القارئ الا فضولاً والا تشویقاً لمعرفة المزید.وسلیمان بن صُرد الخزاعی موضوع کتابنا، هو من تلک الفئة التی تکاد تکون شبه مجهولة حتی للقارئ التاریخی فی کثیر من الاحیان. ویرتبط اسم سلیمان بثورة التوّابین التی قامت کردة فعل عفویة لمصرع الحسین فی کربلاء، وانبثاقاً من الشعور بالذنب الذی غمر الکوفة حینئذ، ومحاولة للتکفیر عنه بأیة وسیلة.والواقع ان حرکة التوابین التی قامت بزعامة سلیمان ورفاقه من قادة الحزب الشیعی، هی طراز فرید بین [صفحه ۸] الحرکات السیاسیة العدیدة التی شهدتها تلک الفترة المهمة من التاریخ العربی، ذلک انها لم تتضمن شیئاً من برنامج الحرکة الشیعیة السیاسی او الاجتماعی او الاقتصادی علی غرار ما ظهر قبل ذلک فی ثورة الحسین او ما ظهر من ملامح فیما بعد فی حرکة المختار الثقفی، وانما انحصرت فی ظل اطار التکفیر عن الذنب واتخذت من الثأر للحسین شعاراً رئیسیاً لها، وانعکس علیها سلوک زعمائها المثالی وشخصیاتهم المرتفعة التی زهدت بالمناصب ورفضت المساومات، ونبذت کل موقف لا یتلاءم مع المبدأ العام للحرکة، الذی لخصه سلیمان بالعبارة الآتیة: «انه لا یغسل عنهم ذلک الجرم الا قتل من قتله او القتل فیه» [۱] .وانطلاقاً من هذا المفهوم نجد أن حرکة التوابین کثورة سیاسیة لا تبتعد بذلک عن الخط المبدأی لحرکة المعارضة الشیعیة اثناء مراحلها النضالیة المتلاحقة من أجل استلام الحکم. فالتخلی عن هذا المطلب - کان بنظرهم - تخلیاً عن حق شرعی وخرقاً لعهد الهی. ونتیجة لذلک لم یکن طلب السلطة عندهم

للتحكّم، وانما لتنفيذ مبدأ هو الاسلام. ولا ريب فى أن وجود مثل هذه الافكار المثالية [صفحه ۹] كان سبباً لاخفاق الحركات الشيعية وعاملاً ساعد الامويين على تصفيتها بسهولة.وفى هذا الكتاب عن ثورة التوابين وزعيمها سليمان بن صرد، رأينا انه من المفيد البحث فى جذور المشكلة التى كانت دافعاً لكل تحرك شيعى ضد النظام الاموى، وهى مشكلة الحكم. ورغم أن ثورة التوابين لا تدخل ضمن هذا التحرك، ولكنها تتصل به بصورة غير مباشرة باعتبارها ردة فعل لثورة الحسين، باكورة التحرك الشيعى المنظم.ولكى نوفر لهذا البحث المعطيات اللازمة والاساسية لكل بحث موضوعى، عالجنا مشكلة الحكم فى الاسلام بعد النبى وخلفياتها فى مجتمع شمالى شبه الجزيرة العربية، وظهور منصب الخلافة ثم تطور مفهومه من الناحية السياسية البحتة الى الامامة. بعد ذلك تطرقنا بشىء من الاختصار الى ثورة الحسين قبل أن نتوسع فى تفاصيل الحركة التوابية موضوع بحثنا.أما المنابع التى استقينا منها عناصر هذا البحث فكانت بصورة أولية مخطوطة الفتوح لابن الاعثم الكوفى من رجالات القرن الثالث للهجرة وبعض المصادر القديمة المعروفة، فضلاً عن عدد غير قليل من المراجع الحديثة. [صفحه ۱۰] وأخيراً فأرجو أن أكون قد وُفقت فى القاء ضوء على شخصيات لم تنل حقها العادل فى مجال التقييم، وأن أكون قد أسهمت بدور متواضع فى خدمة الفكر التاريخى للعرب.بيروت ۱۷/۹/۱۹۷۴ابراهيم بيضون [صفحه ۱۳]

الحكم بعد محمد

اشاره

كان موت الرسول بعد سنوات قليلة من وضعه الاسس الاولى لدولة الاسلام، مفاجأة أذهلت، ربما الشخصيات التاريخية التى عاصرته وعاشت قريبة منه. فبموته شغر مركز الحكم الاول دون اعداد للرجل الذى يمكن أن يشغله، من الناحية الرسمية على الاقل، لان أكثر من مرشح فى الواقع اتجهت اليهم الانظار بعد الخروج من هول المفاجأة، بعضهم كان يطرح نفسه مدفوعاً باعتبارات قبلية، وبعضهم لسابقته فى الاسلام والجهاد فى سبيله. وهكذا وجد المسلمون أنفسهم بعد وفاة الرسول مباشرة فى مهب أزمة سياسية كادت تعصف بالبنيان الذى كان لا يزال حديث العهد. فالحكم فى الدولة الاسلامية الناشئة ارتبط ارتباطاً وثيقاً بشخصية الرسول، وعلى ذلك لم تطرح فى حياته مسألة الخلافة، حتى اذا غاب المؤسس حدث فراغ كبير فى جهاز الحكم وأخذت تباشير لازمة تنذر بالانفجار والرسول لا ـ زال مسجى فى بيته.هل كانت هناك وصية من الرسول حول خلافته؟انه تساؤل أثار كثيراً من الجدل ولا زال... ورغم [صفحه ۱۴] ان البعض يؤكد وجود مثل هذه الوصية [۲] التى تشير الى أن الرسول كان يعد علياً لخلافته فان هذا برأيهم ورأى آخرين غيرهم، أقل ما تفرض الاعتقاد به تصرفات النبى اذ كان من غير المعقول الا يعالج مسألة الحكم قبل موته او ألا يجلو عنها الغموض على الاقل.والواقع ان عدة مؤشرات يمكن أن تضىء لنا الطريق فى بحثنا لهذه المسألة، وكلها توحى بأن الاعداد للخلافة كان لا ينفصل عن تصرفات النبى واجراءاته النظرية والتطبيقية، وان ثمة مخططاً واضحاً كان يرمى الى اختيار على بمعرفة الزعماء الكبار من المسلمين. وقد أدى ذلك الى ظهور أول تكتل سياسى فى المدينة، اتخذ موقفاً موحداً من الخلافة، ضم أبا بكر وعمر وأبا عبيدة.ويبدو أن النبى كان يسمع اعتراضات هؤلاء وغيرهم بشأن اعداده لعلى تتناول أكثر ما تتناول تأخره عنهم فى السن كثيراً. فيأتى جواب النبى فى تركيبة الجيش الذى أرسله لغزو الاطراف الجنوبية من بلاد الشام [۳] وضم عدداً من كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وابى عبيده وسعد بن ابى وقاص وغيرهم من شيوخ المسلمين والمهاجرين والانصار، [صفحه ۱۵] وكان هؤلاء جميعاً تحت قيادة اسامة بن زيد الحدث السن والاقل شأناً بينهم فى مركزه السياسى ومكانته القبلية [۴] .وليست من قبيل الصدفة أن يُستثنى على من الدخول فى هذا الجيش وما كان بقاؤه الى جانب النبى – وهو فى آخر أيامه – الا تحسبا للظروف.وقد حدث بعد اشتداد وطأة المرض على النبى ما أكد اصراره على خروج اسامة بالجيش مع انه لم يكن هناك ضرورة ملحة لهذا الاصرار، سوى أن ذلك كان محاولة

أخيرة لا يصال على الى الخلافة بابعاد كبار الطامحين اليها عن المدينة. وقد أدرك هؤلاء هدف النبى فترددوا فى تنفيذ أوامره وآثروا عدم الابتعاد عن المسرح السياسى فى ظل ظروف دقيقة كهذه [۵] .ونحن لن نتوغل هنا فى تفاصيل أحداث الازمة السياسية التى سيطرت على المدينة، وتطاحن الاحزاب فيها من أجل الاستيلاء على السلطة، فأمر ذلك معروف ومتداول بين مختلف فئات الناس. ذلك أن غايتنا هى البحث فى جذور حركة التشيع سياسياً ثم ظهور الحزب [صفحه ۱۶] الشيعى الذى قاد معظم حركات المعارضة فى الاسلام، وفجر أشد الثورات عنفاً ضد النظام الاموى ثم العباسى.ان الفراغ الذى أحدق بالدولة الفتية أثناء مرض النبى لم يشل الحركة السياسية فى المدينة التى غدت دون حكومة وبلا امام. ففى حين لازم على بيت الرسول مطمئناً على ما يبدو بأن سير الامور سيتجه لمصلحته [۶] ، نشط السياسيون الذين كانوا يترصدون الاحداث عن كثب وبدأوا يتحركون بسرعة، ولعلهم أدركوا ان السرعة هى التى تقرر الامور فى مثل هذه المواقف.وعندما مات النبى كان الوضع شديد التوتر، والناس موزعة بين تكتلات ثلاثة:۱ - أسرة النبى وجمهور المسلمين وبعض كبار الصحابة أمثال: الزبير وسلمان وابو ذر والمقداد فضلاً عن شخصيات أخرى كأبى سفيان وخالد بن سعيد الاموى والبراء بن عازب الانصارى [۷] وكان على مرشحهم للخلافة. [صفحه ۱۷] ۲ - بعض زعماء الانصار الذين اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعده مع نفر قليل بزعامة كبير الخزرج سعد بن عبادة الذى كان يحاول اعلان ترشيحه للخلافة.۳ - تكتل (أبو بكر، عمر، ابو عبيدة) من المهاجرين وكانوا جميعاً مرشحين للخلافة.ولقد كان تكتل الانصار فى الواقع سبّاقاً فى اثارة المشكلة حين سارع الى التجمع فى سقيفة بنى ساعدة فور العلم باحتضار الرسول، وكان ابرزهم سعد بن عبادة الذى جيء به وهو مريض، وصوته يتهدج الى درجة أن ابنه كان ينقل ما يقوله الى الحاضرين [۸] وهنا تحرك تكتل المهاجرين الثانى (ابو بكر، عمر، ابو عبيدة) وخطط بذكاء مستفيداً من الظروف الى أبعد الحدود، ومعتمداً على سلبية تكتل المهاجرين الاول المنشغلين بموت الرسول، وعلى ضرب اتفاق القبيلتين [۹] التى يتألف منها تكتل الانصار خاصة وأن ترشيح سعد الخزرجى لم يلق تجاوباً لدى زعماء الأوس [۱۰] ، وأوجد بعض المزاحمة فى قبيلة الخزرج نفسها من جانب بشير بن سعد الانصارى، فضلاً [صفحه ۱۸] عن ان بعض «الانصار قالت لا نبايع الا علياً» [۱۱] .وما لبث التصدع أن أصاب جبهة الانصار بظهور أول موقف تراجعى أعلنته طائفة منهم بقولها: «منا أمير ومنكم أمير». وكان ذلك أول الوهن كما عبّر عنه سعد بن عبادة [۱۲] ، وهو لا شك قد لامس الحقيقة، لان جدلاً عنيفاً تفجر فى السقيفة حينئذ، ولم يخفف من حدته الا محاولات عمر لاشغال الرأى العام بقضية موت النبى [۱۳] ، ثم ظهور أبى بكر [۱۴] حيث ألقى خطبة عرض فيها دور المهاجرين فى نصرة الرسول وسابقتهم فى الاسلام [۱۵] وأعلن انه ورفاقه الجماعة التى ينبغى ان يكون لها هذا الأمر [۱۶] ، دون أن يتجاهل دور الانصار ونصيبهم فى الدولة الناشئة [۱۷] . [صفحه ۱۹] ويبدو ان خطبة ابى بكر فعلت فعلها فى نفوس المجتمعين فى السقيفة، وكان حينذاك عمر بذكائه الشديد وشخصيته القوية يبذل جهداً فائقاً فى استغلال الموقف الذى بدأ يتحول تدريجياً لصالح المهاجرين. فقد أصبح الآن باستطاعة ابى بكر ان يطرح رجلاً من تكتله للخلافة وفعل ذلك حين قال: «هذا عمر وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا» [۱۸] ولكن عمر أبى الاستجابة لدعوة ابى بكر وأصر على أن يكون هذا الاخير هو الخليفة. وثار الجدل من جديد، وفى غمرة ذلك تقدم عمر من أبى بكر قائلاً: «من ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى الامر عليك، ابسط يدك نبايعك» [۱۹] وبذلك خرج ابو بكر من السقيفة أول خليفة فى الاسلام حائزاً على تأييد الانصار واثنين من زعماء المهاجرين الكبار.وكانت خلافة ابى بكر أشبه ما تكون بانقلاب سياسى ناجح، فجّره تمرد الانصار فى السقيفة، وحوّله تكتل المهاجرين الى مصلحته، دون أن يتاح لفئة مهمة من المسلمين فى أن تمارس حقها المشروع فى عملية الاختيار. فالظروف التى تمت فيها البيعة، لم تكن فى مطلق الاحوال ملائمة [صفحه ۲۰] لتقرير مسألة خطيرة كالخلافة، حين تمخض عنها تشريع عرفى، بأن السلطان لمن غلب، وكان لا بد من أن تعكس سلبياتها طويلاً على تلك المؤسسة.كانت حادثة السقيفة، برغم الاجماع الذى حظى به أبو بكر، وبيعة مختلف الاحزاب له فيما بعد، نقطة البداية فى تاريخ الحركة الشيعية [۲۰] ذلك أن اختيار ابى بكر وابعاد على لم تستسيغهما جماعة هذا الاخير والمؤيدين له.. وقد ترك أعمق الاثر فى نفوس هؤلاء الذين التفوا منذ ذلك الحين حول على وأيدوا قضيته فى الخلافة، ثم تحولوا الى حزب سياسى

عرف بالحزب الشيعي (لمشايعته علياً) او العلوى نسبة اليه. [صفحه ۲۱]

قيام مؤسسة الخلافة و تطورها السياسى

ليس من السهل أن نبحث فى مسألة نشوء الخلافة وتطور أسسها والتحول فى مفاهيمها السياسية والعقائدية. فذلك يحتاج أولاً التعرض الى المنطلقات السياسية مع أصول الادارة والسلطة عند العرب قبل قيام الاسلام، ثم تطور هذه الاصول والمنطلقات بعد انتصار الاسلام وتأسيس دولته.ولا بد للباحث، عند الشروع بمثل هذا العمل، أن يجد نفسه ملزماً فى التعرف الى أحوال مكة ومجتمعها بشكل أساسى، ثم أحوال بقية شبه الجزيرة حاضرها وباديها. لم تعرف مكة قبل قيام الاسلام الحكومة بأى شكل من اشكالها وحدود سلطاتها، بل أديرت شؤونها من قبل كبار التجار وممثلى كبار الاسرة القرشية. وكان للمدينة عدد من الشعب الوظائفية وزعت كل واحدة منها على أسرة من الأسر، دون أن يكون هنالك اية هيئة حاكمة تتمتع بصفة من صفات الشرعية. كذلك لم تعرف المدينة [صفحه ۲۲] أى نوع من أنواع القوة المسلحة، او يوجد فيها جماعات كهنة لهم نفوذ وسلطات، بل كان زعماؤها يجتمعون أحياناً للتداول فى القضايا والمشاكل، وكان مكان اجتماعهم يدعى (دار الندوة). غير أن القرارات التى كانت تتخذ فى هذه الاخيرة، لم يكن لها صفة الالزام، وانما كان الاخذ بها اختيارياً وفردياً... وكان اجماع زعماء المدينة على أمر من الامور متعذراً فى كثير من الاحيان، وكثيراً ما كانت تنقسم المدينة فى مواقفها من القضايا وتعقد التحالفات المتضادة داخلها، وفى النهاية يكون النصر غالباً للحلف الأقوى. وفى كتب الاخبار والسيرة أحاديث طويلة حول بعض القضايا التى واجهها مجتمع مكة وحول أحلاف هذا المجتمع، ويستفاد من بعض الاخبار انه وجد لدى المكيين مفهوم واحد للشرعية الواجب الالتزام بأوامرها مهما كانت، وهذا المفهوم ارتبط بالكعبة التى كانت موضع اجلالهم وقداستهم. فعندما كان يجمع غالبية الزعماء المكيون على أمر من الأمور كانوا يدونون ما أجمعوا عليه فى صحيفة ويقومون بتعليقها فى جوف الكعبة، وهنا يأخذ الامر صفة الشرعية. ولدينا مثال واضح حول هذا: ما عمله المكيون حين أعلنوا صحيفة مقاطعة بنى هاشم التى اضطرت هؤلاء الالتزام بها، فتركوا مكة وأقاموا محصورين فى شعب ابى طالب، وعاشوا فى ظل المقاطعة حتى مزقت الصحيفة [۲۱] . [صفحه ۲۳] هذا وقد استمرت عادة تعليق صحف المعاهدات والوصايا وغيرها فى الكعبة. ومن أوضح الامثلة على ذلك ما فعله هارون الرشيد حين قام بتولية اولاده العهد من بعده.ان أمر الالتزام بشرعية الاوامر المعلقة فى جوف الكعبة مرتبط بقدسيتها، حيث اعتبرها القرشيون بيت الله. وهكذا فالامر المعلق فى جوفها تصبح له صفات الهية، وهو أمر فى غاية الاهمية، وقد تطور بعد ذلك تطوراً كبيراً.وبعد قيام الاسلام، ومع بداية التبشير به لم يحدث تغيير جوهرى فيما كان سائداً فى مكة، ذلك أن النبى لم يمارس أية سلطات على الذين آمنوا برسالته، ولكنه مع ذلك فقد غدا مسموع الكلمة، محترماً ومتبع الرأى بين أتباعه.وقد تبدل هذا الحال كلياً بانقضاء الفترة المكية وهجرة المسلمين الى المدينة، حين عمل النبى الذى أصبح بالاضافة الى صفة النبوة يتحلى بصفة زعيم أمة وحاكمها المطلق النابعة أحكامه من ارادة الله، عمل هذا النبى على انشاء أمة جديدة ذات تقاليد وقواعد جديدة. ولاول مرة فى حياة مجتمع شمالى شبه الجزيرة العربية، لا بل فى مجتمع الجزيرة كله، قامت تجربة جديدة للحكم، مركزية السلطة، [صفحه ۲۴] حاكمها يملك الحق فى التشريع وفى نفس الوقت يقع عليه واجب تنفيذ الاحكام. ولم يكن تطبيق هذا والقبول به من قبل العرب من الامور السهلة، لكن النبى نجح الى أبعد الحدود فى ارساء قواعد لحكم الامة الجديدة التى أقامها وان كان لم يأت بنظرية للحكم ذات أسس ومنطلقات ثابتة.هذا وقد تناول بعض الناس هذه القضية حيث يرون بأن النبى قد أتى بنظرية خاصة فى الحكم والسياسة، هى نظرية الشورى، معتمدين على ما جاء فى القرآن الكريم «وأمرهم شورى بينهم» أو «وشاورهم بالامر». ومع الاقرار بما ترمى اليه هذه الآيات، فان القرآن لم يبيّن قواعد الشورى هذه وحدودها وطرق تطبيقها، كما لم يبين الى أى حد كان على النبى الاخذ برأى أصحابه وأتباعه. وعندما يعود المرء الى كتب السيرة يجد أن مفهوم هذه القضية لم يكن واضحاً عند أحد من الصحابة، كما لم تتوضح معالمه فى الممارسات زمن النبى.لقد ملك النبى وحده جميع فروع السلطة من تشريع وقضاء وادارة وجباية

وأعمال حربية، وذلك بالاضافة الى صفته الاساسية وهى النبوة. وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية بمفاهيم السلطات الدينية فى الاسلام، وصار كل أمر فى الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات [صفحه ۲۵] زمنياً ودينياً. وكان النبى أحياناً ينتدب بعض أصحابه فيكلفهم ببعض الوظائف حين يبتعد عن المدينة، أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام مثل جباية الصدقات أو تفقية الناس بالاسلام وامامتهم بالصلوات او تنفيذ مهمات عسكرية. وكان الذى ينوُب عن النبى فى امامة الصلوات يدعى خليفة النبى، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى أمير. ولما كانت القوات التى يقودها هذا الاخير قواتاً مؤمنة تقوم بتنفيذ مهمة ضد جماعات غير مؤمنة، فقد كان بعض القادة العسكريين يُميزون عن قادة الاعداء بلفظة «أمير المؤمنين!» [۲۲] .وكان الخليفة على الصلوات يؤدى الصلاة كما يؤديها النبى دونما زيادة او نقصان، ذلك أن الخليفة هو النائب عن الأصيل الملتزم كلياً بما عهد اليه من أوامر وتعاليم. وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب الطاعة المبرمة، وتعطى القائد فرص التصرف وابداع الحلول واصدار ما يراه ضرورياً من أوامر وتعليمات. ففى حين حُرم الخليفة من السلطات التشريعية مُنح ذلك للامير وتمتع به.ومع اتساع رقعة الدولة الجديدة، وتعاظم [صفحه ۲۶] المسؤوليات فيها، تقدم النبى بالسن وأخذت آثار المرض وما عاناه تظهر عليه، وهنا – كما يُستخلص من الاخبار – أخذ بعض المسلمين يفكرون فى مستقبل العقيدة وفى شؤون الحكم فى الدولة ومع مرض النبى الاخير أصبحت هذه المسألة هاجساً جثم على صدور المسلمين، وأثيرت هذه القضية قبل موت النبى، ويبدو انه حاول وضع الحل لهذه المسألة ولكن مرضه وأموراً أخرى حالت بينه وبين ذلك [۲۳] .وبعدما توفى النبى تمّ استلام أبى بكر لمقاليد الحكم فى الدولة الجديدة فى ظروف سبق شرحها، وأصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسمياً وأساسياً فى الحياة السياسية للامة الاسلامية، بينما لم تكن له فى البداية أية هوية واضحة المعالم والاسس.وحاول ابو بكر تحديد معالم منصبه الجديد منطلقاً من مفهوم «الخلافة» اللغوى، أى أن الخليفة نائب ملتزم بأوامر المنيب وأفعاله. وقد ظهر ذلك فى قوله «انما أنا متبع ولست بمبتدع»، وظل أبو بكر يعرف طيلة حكمه بخليفة رسول الله، ذلك انه لم يحتج الى تبديل لقبه، لان [صفحه ۲۷] مدة حكمه كانت قصيرة، لم يحدث فيها مشاكل جديدة تحتاج الى تشريع. وهكذا ظل ابو بكر يعتبر نفسه نائباً عن النبى منفذاً لكل ما جاء به، ويرى نفسه انه لا يملك اية صلاحيات تشريعية، كما انه لا يملك اجبار المسلمين على ركوب خطة لم يحدد معالمها النبى والقرآن الكريم.ومات ابو بكر والحالة من حيث الجوهر كما هى، سوى ان رقعة الدولة قد اتسعت فشملت أراضى خارج شبه الجزيرة، كما انه تجمع فى الاقاليم المفتوحة قوات عربية مسلحة لا ريب انها أخذت تتطلع نحو اسماع صوتها ورأيها فى السلطة. وقبيل وفاته قام ابو بكر بتعيين عمر بن الخطاب لتولى شؤون الحكم من بعده. وقبل الناس بهذا التعيين، الامر الذى يدل على حدوث تغييرات فى مفاهيم الناس السياسية.واستلم عمر السلطة والدولة الناشئة تجتاز مرحلة حاسمة وتواجه مشاكل خطيرة تحتاج الى حلول، ومثل هذه الحلول تطلبت ممارسة الخليفة صلاحيات تشريعية، ذلك أن الكثير من المشاكل كان جديداً ليس له نظير بين مشاكل العصر النبوى، ومن الامثلة على ذلك قضيتا السواد ونصارى تغلب، حيث قضت الاحكام الاسلامية بتقسيم الغنائم التى يحصل عليها المسلمون وفقاً لقواعد [صفحه ۲۸] حددها القرآن، كما قضى الاسلام بأن يدفع أهل الذمة من نصارى وسواهم من غير المسلمين الجزية دونما استثناء.فبعد الاستيلاء على سواد العراق وفتح الجزيرة اقتضت الاحكام تقسيم أرض السواد، ودفع قبيلة تغلب العربية للجزية اسوة ببقية سكان الجزيرة النصارى، لكن هؤلاء رفضوا دفع الجزية. ولقد أدرك عمر ما يمكن أن يلحقه تقسيم السواد من مضار، فما كان منه الا ان ترك قسمته، ولجأ الى مضاعفة الصدقة على نصارى تغلب، بدفع ضريبة من نفس النوع الذى يدفعه المسلم انما الكمية مضاعفة [۲۴] .ان فى اقدام عمر على مثل هذا العمل، يعنى انه قد منح نفسه صلاحيات تشريعية الامر الذى لم يفعله ابو بكر، فهو بذلك لم يعد خليفة بمعنى النائب بل تصرف كتصرف أمير الجيش. وهكذا تخلى عمر عن لقب خليفة ليكتسب لقب «أمير المؤمنين» [۲۵] ، وفى هذا التعبير مؤشرات تدل على تبدل جوهرى فى المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية، خاصة وأن العرب المسلمين اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطه قبل خضوعها للعرب فتركت بعض التأثير. [صفحه ۲۹] ومع امتداد الايام واتساع رقعة الدولة وبروز مشاكل جديدة أصبح الناس أكثر قبولاً لاعطاء الخليفة صلاحيات أوسع فى

التشریع، ویبدو أن عمر کان متنبهاً لذلک، فأخذ یبحث عن قاعدة یُرتکز الیها فی المستقبل، غیر أن اغتیاله المفاجئ جاء لیمنعه من اتمام هذا الامر. وبینما هو علی فراش الموت یعانی من آلام جراحه، لم یشغله ذلک عن هاجس الحکم ومستقبل زمام السلطة فی الدولة الاسلامیة الناشئة. نظر عمر حوله، فرأی ستة من اصحاب النبی کل واحد منهم یمثل فرعاً بارزاً من أسرة الزعامة القرشیة. وکان أبرز هؤلاء الستة، علی بن ابی طالب ممثل بنی هاشم، اسرة النبی، آل البیت فی الاسلام، وأبرز أسر الزعامة قبل الاسلام منجهة، ومن جهة ثانیة عثمان بن عفان ممثل أسرة بنی أمیة، أسرة المال والزعامة الاولی قبل الاسلام، والتی تسلم العدید من أفرادها أخطر مناصب الولایات بعد فتح مکة وأیام الفتوح زمن أبی بکر وعمر نفسه. ویبدو أن هذا الاخیر رأی فی تعیین علی مقدمة لقیام حکم الاسرة المقدسة، ورأی فی تعیین عثمان تمهیداً لتمکین بنی أمیة من التسلط الکلی علی الدولة وتسییرها بعقلیة الارستقراطیة التجاریة المؤثرة.لهذا آثر عمر عدم تحمل مثل هذه المسؤولیة فتکون آخر أعماله وأخطرها، فکان أن ترک هذا الامر للستة الباقین من أصحاب النبی، لیقوموا باختیار أحدهم خلیفة. [صفحه ۳۰] وتوفی عمر، واجتمع هؤلاء فوضحت منذ البدایة معالم الصراع، حیث أعلن أربعة من المرشحین عزفهم عن ترشیح أنفسهم مع احتفاظهم بحق التصویت. وبذلک انحصرت المعرکة بین علی وعثمان، وأوکلت الامور الی عبد الرحمن بن عوف لاختیار واحد منهما. وقام هذا الاخیر باستطلاع آراء الناس، فکان أن واجه تیارین: أحدهما ملّ قسوة نظام عمر ورقابته المرکزیة الشدیدة وعدم تساهله، ورأی فی استلام علی للحکم استمراراً، لا بل تطویراً لنظام الخلیفة السابق، وتطبیقاً أشد لقوانین الاسلام. ذلک ان علیاً کان ابن الاسلام وربیب البیت النبوی وعارفاً بأمور الدین وعلومه أکثر من سواه، فقد شرب من ینابیعه الاولی منذ البدایة وحتی نهایة حیاة النبی بلا انقطاع أو توقف، کما رأی اتباع هذا التیار ان فی استلام علی للسلطة انتصاراً دائماً للتیار الهاشمی الذی انتصر بنجاح النبی وطعن یوم السقیفة. ولقد کان اتباع هذا التیار أقل قوة من التیار الآخر، غیر انه کان أکثر مرونة وأوسع دهاء وأقل مثالیة وأبرع فی اعداد الانقلابات وخلق المواقف المحرجة [۲۶] . [صفحه ۳۱] لقد رفض علی القبول بشروط عبد الرحمن بن عوف [صفحه ۳۲] وأصر علی أن یعمل بمبلغ علمه وطاقته، ذلک انه أتسم بالعلم والمعرفة الواسعة بالاسلام، والی هذه الناحیة الاساسیة أشار المقداد بن الاسود، واتسام علی بالعلم والمعرفة صار فیما بعد، أی بعد نشوء الحزب الشیعی وتطوره حجر أساس فی العقیدة الشیعیة.وبعدما صار عثمان أمیراً للمؤمنین تمهد السبیل امام بنی أمیة للسیطرة علی مقالید السلطة للأمة الجدیدة والتحکم بها، علی ان ذلک لم یحدث دون ردات فعل، ودونما ثمن باهظ کان علی عثمان أن یدفعه بدمه. وجاءت خلافة علی، [صفحه ۳۳] فکانت أشبه بفترة انتقال انتهت معها فترة الخلافة لتحل محلها علی الصعید الرسمی والعملی، حکم الاسرة الاموية الملکی، وعلی صعید المعارضة الامامة.ولن أحاول هنا التأریخ لما واجهه عثمان أیام حکمه او الاسهاب عن خلافة علی والمشاکل التی اعترضتها، فلذلک مکان آخر ومناسبة خاصة، وانما سأکتفی بالاشارة الی ان استلام علی للحکم واتخاذه من الکوفة عاصمة له، جعل حزبه الذی تکوّن مع الایام یمارس السلطة وینظم نفسه بعض الشیء. هذا وقد نظر هذا الحزب مع الذین آمنوا بأحقیة علی بالخلافة الی هذا الاخیر بعد استلامه الحکم، نفس نظرتهم السابقة: رجل له من المؤهلات ثم القرابة ما یجعله أجدر الناس وأحقهم بالقیادة، أی أن القرابة کانت مزیة من المزایا، انما لم تکن بحال من الاحوال المنطلق والقاعدة الاساسیة.وبعد اغتیال علی، ووصول معاویة الی أن یکون «أمیر المؤمنین» کما کان أبوه «سید أهل الجاهلیة» حرمت شیعة علی (حزبه) من الحکم، وغدا أفرادها رجال المعارضة الملاحقون من قبل السلطة. وقامت جماعة الشیعة بمبایعة الحسن بن علی خلیفة بعده، لکن الحسن تنازل لمعاویة ثم ما لبث أن أغتیل، فتوجه الشیعة بأبصارهم نحو أخیه الحسین. وفی خلال هذا الوقت ثبت فی أذهان الناس [صفحه ۳۴] أن الخلافة حق لعلی وأولاده، فبعد فاجعة کربلاء لم یر بعض الشیعة غضاضة بالاعتراف بمحمد بن الحنفیة کصاحب حق فی الخلافة، وکان هذا شعار المختار وأتباعه. وبعد اخفاق ثورة هذا الاخیر أجمع غالبیة الشیعة علی حصر الحق الخلافی فی أولاد علی من زوجته فاطمة بنت النبی، ذلک أن تطوراً کبیراً قد ألم بالفکر الشیعی من کافة الجوانب، وغدت القرابة هی العمود الفقری لحق الحکم والقیادة، وهذا الحق ثابت بالنص والتعیین، ومحاط بخصائص ومزایا. فالنبی کان خاتم الانبیاء وهو عند وفاته لم یورّث النبوة وانما ورّث قیادة الامة لعلی، وهذا ورّثها لأولاده من

بعده. ومع وفاة النبى انقطع الوحى لكن النبى كان قد تدارك ذلك بأن أعطى علياً علماً خاصاً، وعلى - الذى وصف دائماً بالعلم - ورّث هذا العلم لابنه وهكذا.وعلى هذا نجد انه بعد استيلاء معاوية على السلطة حدث تطور كبير فى الخلافة وامرة المؤمنين، فقد أصبح رأس السلطة ملكاً أو أشبه بالملك، مع احتفاظه بلقب «أمير المؤمنين» دون سواه من أصحاب السلطة، وصار زعيم المعارضة اماماً. كذلك تطورت فكرة الامامة تطوراً كبيراً، فقد حدث انشقاق بين صفوف الحزب الشيعى، بحيث طورت كل جماعة فكرة الامامة تطويراً خاصاً وحددتها بما شاءت وبما اقتضت الاحوال. [صفحه ۳۷]

على والخلافة

بعد مصرع عثمان، الذى أخفق فى تحمل مسؤوليات الحكم بعد خليفة قوى هو عمر بن الخطاب، شغر مركز الحكم مرة أخرى، وعادت الازمة من جديد تفجر صراعات وتثير تناقضات لا حد لها، وهى أزمة فاقت كثيراً فى خطورتها وأبعادها الازمة الاولى التى انتهت فى السقيفة. ذلك ان مقتل الخليفة فى أعقاب ثورة دموية قام بها الجند العرب فى الامصار، لم يكن حدثاً عادياً يمكن أن يمر دون أن يخلّف رواسب ستصبح متأصلة فى جسم الدولة الناشئة، فتهدد وحدتها بين الحين والآخر، فهو حدث ترك تأثيره العميق على مجرى التاريخ الاسلامى كله، وجعل للسيف الكلمة الفاصلة فى امور الحكم [۲۷] ولعل ما ينسب الى عثمان بعد اشتداد وطأة المحاصرين على داره يعبّر عن هذه الحقيقة حين قال: «فو الله لئن قتلونى لا [صفحه ۳۸] يتحابون بعدى أبداً ولا يصلون بعدى جميعاً، ولا يقاتلون بعدى عدواً» [۲۸] .واذا كان هدف الثوار الذين قادوا انقلابهم على عثمان تحرير الخلافة من طغيان العائلية والاحتكار لمغانم الحكم، فانهم قضوا بحركتهم دون قصد على آخر ما تبقى من نظام الشورى الذى تحول الى ملكية مطلقة فى عهد معاوية [۲۹] .ظلت عاصمة الخلافة تعيش فى غليان لعدة أيام، بانتظار من يخلف عثمان فى الخلافة.. ولم تكن المسألة بسيطة فى ظروف حرجة كهذه لان مسؤوليات ضخمة ومهمات خطيرة كانت تنتظر الحاكم الجديد وكان لا بد ان يبت بها سريعاً قبل أن يحترق بنار الحكم. وعلى ذلك لم يكن مستغرباً أن يبتعد بعض كبار السياسيين عن المدينة بعدما أدركوا خطورة الوضع، تاركين معالجة الازمة لعلى المرشح الاوفر حظاً حينئذ للخلافة والذى كان قد بدأ يمارس بعض اعمالها قبل مقتل عثمان [۳۰] وتردد علىّ نفسه فى قبول هذا المنصب حين توجه اليه الثوار وعرضوه [صفحه ۳۹] عليه بعدما رأوا ميل الغالبية العظمى اليه. ولكن تردده زال أمام اصرار الثوار على بيعته وربما لشعوره بأن التهرب من الحكم فى مثل هذه الظروف خيانة للامة، وللعقيدة، فقد كانت فترة حاسمة فى تاريخ الاسلام، فترة فى أشد الحاجة الى رجل قوى كعلى، ارتبط تاريخياً بالاسلام منذ ظهوره. وثمة شىء آخر هو ان علياً كان السياسى الذى يحظى بتأييد الغالبية فى المدينة والزعيم الذى يمكن ان يتفق عليه بقية الزعماء.اجتازت الازمة بعض خطورتها بتولية على مهام الخلافة، ولكن الامور فى عهد الخليفة الجديد سارت فى اتجاه أكثر تعقيداً وأخذت الاحداث تتلاحق بصورة عجيبة. فقد كان هناك أكثر من عائق يعترض هذا الخليفة ويمنعه من القيام بمهماته لا سيما فى مجال التغييرات التى كان لا بد من اجرائها لازالة رواسب الحكم السابق. فقد كان عليه أن يوجد حلاً لجميع المشاكل التى أثيرت فى عهد عثمان وأدت الى مقتله.. وهذا معناه الاصطدام بعدد من كبار الصحابة ورجالات الاسلام الذين اصابوا حداً بعيداً من الثراء زمن الخليفة السابق، ومن الطبيعى أن تتعارض مصالحهم مع الخليفة الجديد المعروف عنه المثالية وشدة التصلب فى الرأى. [صفحه ۴۰] والحقيقة ان مهمة الخليفة الجديد كانت على جانب كبير من الخطورة، ذلك أنه لم يكن يحظى بتأييد كل القوى السياسية فى الدولة يضاف الى ذلك ان بعض الذين بايعوه أخذوا يرفضّون عنه ويتطلعون كل بدوره الى الافادة من الظروف والوصول الى مكاسب معينة. ومن المدهش حقاً أن نرى اثنين من الصحابة الكبار هما الزبير وطلحة اللذين ما انفكا يكيدان ضد الخليفة السابق، أول من ينقلب على على، ويصل الامر بهما الى اتهامه بالوقوف وراء مقتل عثمان.بدأ على أولى مهماته الكبيرة، بعزل ولاة الاقاليم وكانوا موضع السخط والتذمر ووضع مكانهم مجموعة جديدة تتمتع بثقة وتنسجم مع سياسته [۳۱] وقد نفّذ الجميع أوامره الخليفة باستثناء والى الشام معاوية الذى اتخذ من قضية الخليفة المقتول عثمان ذريعة لعدم الاعتراف

بعلی، فافتتح بذلک صفحة جدیدة دامیة فی تاریخ الحرب الاهلیة التی شهدها حینئذ العالم الاسلامی.وکان علی بدوره یدرک جیداً أبعاد المشکلة ویعرف ان القضاء علی خصمه القوی المتمرس فی المنطقة الشامیة [صفحه ۴۱] لیس بالامر السهل. ولکن الشام لم تکن کل هموم الخلیفة الجدید، فقد کان هناک أکثر من منتحل لقضیة عثمان، تصدی لعلی وراح یزرع فی دربه المتاعب. ففی الحجاز ناوءه الزبیر وطلحة وکانا أصلاً من أصحاب الطموح للخلافة، وقد أیدا علیاً أول الامر ثم ثاراً علیه بعد تعیین ولاة الاقالیم الجدد دون أن یکون لای منهما نصیب [۳۲] وانضمت عائشة التی کانت تحقد علی علی منذ أیام النبی الی فریق الساخطین بزعامة طلحة والزبیر [۳۳] وکانت غیر بعیدة عن مجری الاحداث التی أودت بالخلیفة السابق، ثم انسحبت الی مکة، بعد شعورها بأن علیاً سیکون الخلیفة، تعمل علی تجمیع القوی ضده، وتستغل فی نفس الوقت لعبة التشکیک بموقف الخلیفة الجدید من قتلة عثمان. واجتمع الساخطون الثلاثة فی مکة، ثم غادروها الی العراق بعد أن أدرکوا صعوبة مناجزة الخلیفة فی الحجاز ونجحوا فی اقناع البصرة بالانضمام الی حرکتهم. ولکن هذه الحرکة لم تکلف الخلیفة کبیر عناء، فسرعان ما خرجت قواته من المدینة (هجری / ۶۵۶م) وتمکنت من إخضاع الثائرین دونما صعوبة فی معرکة الجمل التی سمیت [صفحه ۴۲] بهذا الاسم نسبة الی الجمل الذی کانت تمتطیه عائشة اثناء المعرکة [۳۴] .علی ان هذه الحرکة برغم فشلها السریع، نجم عنها نتائج علی جانب من الاهمیة. ذلک ان معرکة الجمل أدت الی انتهاء مدینة الرسول کعاصمة سیاسیة وتحویلها الی مدینة ذات مرکز دینی بحت واصبحت الکوفة عاصمة الدولة الجدیدة خلال الفترة القصیرة التی قضاها علی فی الحکم ومن ثم المرکز الاول لنشاط الحزب الشیعی طوال أجیال عدیدة. کما کانت معرکة الجمل أول معرکة فی الاسلام یقودها خلیفة بنفسه ضد اخوان له فی العقیدة [۳۵] وکان علی علی وهو الشدید الایمان أن یوجد حلاً لذلک ویستن تشریعاً خاصاً عرف فیما بعد بتشریع قتال أهل القبلة جاء فیه: «لیس علی الموحدین سبی ولا یغنم من أموالهم الا ما قاتلوا به وعلیه» [۳۶] .واذا کانت حرکة المعارضة الحجازیة قد لاقت الفشل سریعاً فی البصرة، فان حرکة أشد خطورة کان علی الخلیفة [صفحه ۴۳] محاربتها فی الشام حیث معاویة العامل القوی والولایة المنضبطة والجیش المنظم.فبعد فراغه من موقعة الجمل وجه علی من مرکزه الجدید فی الکوفة، الدعوة الی معاویة لمبایعته واعلان الولاء له مع التهدید بأنه سیلجأ الی قتاله اذا ما استمر فی مخالفته والخروج علی ارادته [۳۷] ولکن هذه الدعوة کما توقع الخلیفة نفسه ومعه کبار معاونیه [۳۸] اصطدمت بتصلب من معاویة واصرار منه علی تسلیم المسؤولین عن مقتل عثمان. ولم یکن هذا الاصرار سوی تبریراً لخروجه علی الطاعة واخفاء لما یخطط له من وراء هذه الحملة، وهو منطق کان من الطبیعی أن یرفضه علی أو أی حاکم آخر، فهو الخلیفة والمسؤول الاول، والیه یرجع المتخاصمون فیحکم ما بینهم.وبدأت الحرب أخیراً فی صیف ۳۶ هجری / ۶۵۷ م وکان سهل صفین، المدینة الفراتیة القدیمة مسرحاً لها، وقد شهدت عدة معارک طاحنة کان یرافقها حملات دعائیة مرکزة من الطرفین فضلاً عن الحرب النفسیة التی کان الهدف [صفحه ۴۴] منها تدعیم المعنویات واکتساب أکبر عدد ممکن من عناصر الجیش الآخر. وکان سیر المعارک الاولی یتجه لصالح العراقیین الذین اصبحوا علی وشک الانتصار الی أن جابهتهم المصاحف مرفوعة علی أسنة الرماح، وطرح شعار التحکیم للنظر فی مسألة الخلاف بین الطرفین. فاستجاب علی وهو مکره [۳۹] ، وتوقف القتال بعد جدل عنیف بین کبار قواده. وکان التحکیم مسرحیة لتمییع الموقف أخرجها عمرو بن العاص أحد کبار البارزین فی معسکر معاویة. والحق ان استعدادات معاویة لم تتم فی الاطار العسکری فقط، وانما فی الاطار السیاسی أیضاً حیث أحاط نفسه بمجموعة من الرجالات الذین عرف عنهم الدهاء والبراعة فی تغییر المواقف، ومن هؤلاء عمرو بن العاص الذی انضم الی معاویة بعد مساومات طویلة جرت بین الرجلین [۴۰] .وأرغم علی علی القبول تحت ضغط الاکثریة فی صفوف جیشه التی کان یعوزها الانضباط وتفتقر الی روح الحماسة، فالجبهة العراقیة کانت غیر متماسکة وتتفجر بالتناقضات بینما کان الامر علی عکس ذلک فی الجبهة [صفحه ۴۵] الشامیة، حیث کان وقف القتال انتصاراً للشامیین دفع عنهم الهزیمة وجعل من زعیمهم معاویة فی مرکز الند والمنافسة لعلی فی الخلافة.وکما أرغم علی علی القبول بمبدأ التحکیم، أرغم علی اختیار ممثله فی المفاوضات وهو ابو موسی الاشعری. بینما کان ممثل معاویة بطل عملیة رفع المصاحف عمرو بن العاص، الذی

أوصاه معاویة بقوله: «ان أهل العراق أکرهوا علیاً علی أبی موسی، وأنا وأهل الشام راضون بک، وقد ضُم الیک رجل طویل اللسان قصیر الرأی، فأخر الحزّ، وطبق المفصل ولا تلقه برأیک کله» [۴۱] والتقی الحکمان بأذرح فی دومة الجندل (هجری ۶۵۹/ م) ووضح منذ بدء المفاوضات انعدام التکافؤ بینهما، وما لبث الاجتماع ان ارفضّ دون نتیجة، وعادت الامور الی ما کانت علیه قبل التحکیم مع فارق واحد ان مرکز علی أصبح أکثر تضعضعاً حیث خرج من معسکره مجموعة من اثنی عشر ألفاً محتجة علی مبدأ التحکیم، رافعة شعار «لا حکم الا لله». وهی المجموعة التی عُرفت بالخوارج وکان لثوراتها فیما بعد تأثیراً کبیراً فی التاریخ الاسلامی. ولقد أحدث تمرد هؤلاء ارباکاً فی جیش علی اضطر هذا [صفحه ۴۶] الاخیر ان یوقف الزحف الی الشام من أجل القضاء علیهم. وقد أدی هذا الاقتتال الجانبی الی هدر طاقات الجیش العراقی فی الوقت الذی اتاح الفرصة لمعاویة ان یستفید بتعزیز مواقعه التی تعدت الدفاع الی الهجوم... وفجأة انهارت الجبهة العراقیة بعد ان دأب علیّ علی ترمیمها واستکمالها بعناصر متجانسة موحدة الولاء لوضع الامور فی نصابها.ولکن مشاریع الحرب التی أرید لها ان تفتح مرة أخری أبواب الصراع بین الشام والعراق، احبطها معاویة قبل ان تخرج الی النور. وفی غمار ذلک تسقط ولایة مصر المهمة بید عمرو بن العاص - أحد أبرز المتحالفین مع معاویة فی صفین - ویقتل علی غیلة فی مسجد الکوفة (هجری - ۶۶۱ م)، فکانت الضربة القاتلة للحزب الشیعی بغیاب قائده المؤسس. ولیس من العسیر علی أی متتبع لشریط الاحداث حینئذ ان یلمح شبح معاویة وراء تلک المؤامرة وقد تلوثت أصابعه بالدماء. واذ أصبحت الصورة أکثر وضوحاً، تحدّد الموقف بصورة شبه نهائیة لمصلحة الحزب الاموی. [صفحه ۴۹]

الاحوال السیاسیة منذ اغتیال علی إلی کربلاء...

اشاره

بین الحسن ومعاویةبویع الحسن بالخلافة بعد اغتیال ابیه. وکأی حاکم جدید یتولی السلطة، أعلن برنامجه السیاسی فی مسجد الکوفة، وکانت أبرز خطوطه مشکلة الصراع مع معاویة، ذلک الصراع الذی وجد الحسن نفسه منقاداً الیه تلقائیاً لاعتبارات عقائدیة وسیاسیة.وعلی عکس ما یعتقد البعض من أن هذا الخلیفة کان عازفاً عن استئناف الحرب مع معاویة، وأنه حین سار لقتال هذا الاخیر کان تحت ضغوط من جماعته الکوفیین [۴۲] فالحقیقة الثابتة أن الحسن واجه هذا الامر بمنتهی الجدیة والحزم، وکان أول ما فعله بعد وصوله الی الحکم هو الاهتمام بجیشه، فدفع رواتب جنوده [۴۳] وعمل علی اعدادهم اعداداً لائقاً لحرب مصیریة مقبلة. وهذا الجیش [صفحه ۵۰] هو نفسه الذی أعده علی قبل اغتیاله للزحف به الی الشام. ولعل بعض المؤرخین قد خلطوا بین ما اشاروا الیه من تردد الحسن فی مجابهة هذه المشکلة وبین حذره الذی غلب علی تصرفاته. فالتردد شیء والحذر شیء آخر. وهذا الموقف کان نابعاً فی المقام الاول من عدم ثقته بالزمرة السیاسیة التی حاطت به وکان لا بد من الاعتماد علیها فی مطلق الاحوال [۴۴] فهی مرکز الثقل فی الکوفة بما تمتلکه من رجال وأموال، وهی فی الواقع تقرر الموقف الذی ترید [۴۵] علی ضوء ما تراه منسجماً مع مصالحها وامتیازاتها فی المدینة.فالحسن کما نعرف عاش عن کثب تجربة الحرب فی صفین وما صاحبها من مؤامرات، وخبر جیداً أسالیب معاویة فی امتلاک قلوب هذا النوع من الرجال [۴۶] الذی کانت مصالحه فوق المبادئ وفوق المثل. ولم یکن [صفحه ۵۱] مفاجئاً أن یتحول هؤلاء الذین عرفوا بالاشراف فیما بعد الی مطیة للنظام الاموی یقاتلون فی صفوفه، نفس الحزب الذی کانوا من أرکانه أیام علی والحسن.فالحسن اذا لم یساوره أدنی تردد او تخاذل فی موقفه من الحرب مع معاویة، ولکنه کان شدید الحذر من جماعته، غیر واثق من ولائهم واقتناعهم بفکرة الحرب. ولا بد لنا هنا من أن نتصور أیة مهمة مستحیلة کانت بانتظار الحسن لیخوضها بجیش مفکک العناصر، مضطرب الولاء، موزع الانتماءات قبلیاً وعشائریاً.بهذه الترکیبة العجیبة من المقاتلین التی لم یدخلها سوی قلة مؤمنة ومخلصة، سار الحسن لقتال الجیش الشامی القوی والانضباطی - الذی وصف معاویة عناصره یوماً بأنهم «أطوع جند وأقلهم خلافاً» [۴۷] وهو

یدرک جیداً ان المتاعب لن تأتیه من أعدائه فقط، بل من الانتهازیین داخل جیشه أیضاً الذین یظهرون غیر ما یسرون [۴۸] ، فکان ذلک یزید من شجونه ویزید الامور تعقیداً. [صفحه ۵۲] وکان معاویة قد أدرک بدوره نقطة الضعف هذه فی جیش الحسن فاستغلها ببراعة وأخذت مناوراته ودسائسه تفعل فعلها فی أوساط المترددین وهم کثرة، وتمکن من تألیب کبار القواد علیه وتخذلیهم عنه بشتی المغریات.ولعل من أقسی ما تعرض له الحسن تواطؤ قائده وابن عمه عبید الله بن عباس مع معاویة وتسلله الی معسکره لیلاً ومعه القوة الاساسیة من الجیش [۴۹] وأخذت الأوضاع تتحرج اکثر فأکثر فی جبهة الحسن الممزقة حتی وصل الامر الی حد بأن تجرأ علیه بعض جنده فهاجموه فی فسطاطه [۵۰] ، وکمن له رجل متطرف من بنی أسد اسمه الجراح بن سنان فأصابه بجرح بلیغ فی فخذه [۵۱] فتراجع الحسن حینئذ الی المدائن لینشغل فی مداواة جراحة. کل هذا فی الوقت الذی کان فیه معاویة ناشطاً فی محاولة استقطاب المزید من رجالات الحسن [۵۲] وفی تصعید حملاته النفسیة فی صفوف أعدائه. [صفحه ۵۳] وتحت تأثیر هذه الظروف المأساویة المؤلمة، ولما آل الیه وضع الجیش العراقی، وفی غمرة هذا الجو المشحون بالتشاؤم فی امکانیة الصمود والامل بالنصر، استجاب الحسن أخیراً وهو مرغم لعروض معاویة من أجل الصلح بعد أن أبدی هذا الاخیر استعداده للموافقة علی جمیع ما اشترط علیه [۵۳] .أثارت قضیة الحسن ولا تزال الکثیر من الجدل. فمن مبالغ متطرف فی تقدیر مواقفه واجلالها، الی منتقد ظالم اکتفی بالنظرة السطحیة الی مجریات الاحداث وتغاضی عن کل الایجابیات. وبالنتیجة کانت شخصیة الحسن عرضة لتقویم خاطئ وغیر منصف. والحق أنه وجدت هناک أسباب لا ینبغی لأحد تجاهلها فی هذا المجال لأنه کان لها الدور المؤثر فی عملیة الصراع الذی دار بین الحسن ومعاویة او بین العراق والشام باتخاذه بعداً اقلیمیاً بدأ فی صفین وترکز بعد تنازل الحسن ثم تعمق فی کربلاء وتحول الی صراع تقلیدی علی مدی بعید من الزمن. ومن هذه الاسباب:۱ – فقدان القیادات الشعبیة المخلصة التی برزت [صفحه ۵۴] مع علی، القادرة علی تحریک الجماهیر وضبطها، ابتداء بعمار بن یاسر وانتهاء بالاشتر النخعی، فقد أفلت الزمام فی جیش الحسن لافتقاده الی القیادات الفعلیة، وهذا الشیء نفسه سیتکرر مع مسلم بن عقیل فی الکوفة.۲ – أدرک الحسن ان موازین القوی غیر متکافئة بینه وبین أعدائه خاصة بعد التخلخل الذی أصاب جیشه وظهور الانتهازیة فیه. من هنا رجّح خسران المعرکة عسکریاً ووجد ان المخاطرة بجیش ضعیف وممزق ستؤدی الی ضرب الحزب الشیعی بکامله وانهیار البقیة الباقیة من رجالاته المخلصین. وکان هذا بدون شک تقدیراً سلیماً وبعد نظر من جانب الحسن. وعلی ذلک سنجد ضمن ما اشترطه علی معاویة بعد توقیع الصلح اعلان العفو العام، لانه لم یشأ أن یدع تلک النخبة [۵۴] من الحزب فی مواجهة معاویة دون أیة ضمانات.

معاویة و تحویل الخلافة الی ملک وراثی

بعد تنازل الحسن، سقطت آخر معاقل الخلافة الراشدیة، وبدأت مرحلة جدیدة فی تاریخ الاسلام مختلفة تماماً فی أبعادها ومناهجها عن المرحلة السابقة. وغدت دمشق مرکز الحکم وعاصمة الخلافة الاموی التی أرسی قواعدها معاویة. ولقد کان هذا الاخیر یمتلک طموحاً بعیداً، فانصرف بکل ما أوتی من جهود الی بناء مجتمع جدید، مطبوع بشخصیته المکیافیلیة، ومتأثر برواسبه القبلیة الی أبعد حدود التأثر.کانت مشکلة الحکم من أهم ما التفت الیه معاویة، ولم یقعده بلوغ الخلافة وتحقیق أحلامه فی السلطة عن التفکیر بها ومحاولة الوصول الی حل جذری لها. وقد رأی فی تجارب الخلفاء الذین سبقوه، والازمات التی مرت بها الخلافة، مسوغاً لاحداث تغییرات أساسیة فی نظام الحکم، بتحویله من نظام قائم علی الشوری الی ملکی أوتوقراطی أو بمعنی آخر من حکم اسلامی دینی الی سیاسی دنیوی [۵۵] .وکانت أبرز جوانب هذه المشکلة برأی معاویة، ما [صفحه ۵۶] یمکن ان یتمخض عن هذه التغییرات من معارضة، ربما تؤدی الی حرب أهلیة. فالحسن منافسه لا زال فی المدینة ووراؤه حزب کبیر، لن یقبل بأی اجراء یجعل من الخلافة ملکاً متوارثاً لبنی أمیة، فضلاً عن ان ذلک مناقض للمعاهدة التی عقدت بین الحسن ومعاویة [۵۶] وکذلک فان الاحزاب الاخری ستنفر من هذه الفکرة وستقابلها بالرفض.ولکن معاویة لا تقلقه کثیراً هذه التصورات فهو یعرف جیداً ماذا یرید، ولدیه من اخلاص

جنوده الشاميين ما يدفعه لتنفيذ مخططاته مهما كان السبيل الى ذلك. بدأ أولاً بتصفية الحسن فأزاح بهذا منافساً رئيسياً من طريقه [۵۷] وانتشر رجاله فى أقاليم الدولة يبشرون بفكرة الوراثة ويمهدون لقبول الناس بيزيد خليفة بعد أبيه. وكانت مهمة صعبة أمام هؤلاء، لم تقتصر على الاقناع بالمبدأ فقط، ولكن أيضاً حول صلاحية الشخصية المرشحة لولاية العهد التى لم تكن بنظر الناس مؤهلة لتولى منصب حساس كالخلافة. [صفحه ۵۷] على أن ولاية العهد رغم ما أثارته من استهجان فى أوساط المسلمين، فقد تمكن معاوية بواسطة أجهزته من أخذ البيعة ليزيد بغير صعوبة فيما عدا اقليمين كان يعرف هو سلفا موقفهما وهما: العراق والحجاز. الاول لرفضه الخلافة الاموية أساساً والتزامه بقضايا مختلفة تماماً، تحركها عوامل سياسية واقليمية واضحة. والثانى كانت لديه نفس الاعتبارات تقريباً مع فارق واحد يعطى له أهمية خاصة بالنسبة لمعاوية. فهو مهد الاسلام ومركز العاصمة الاولى للخلافة وملتقى كبار رجالات الاسلام الذين تمتعوا بالاحترام والتأييد الشعبى الواسع.واذا كان العراق الذى افتقر حينئذ الى القيادات الفعلية، قد أرغم بمعظمه على البيعة تحت وطأة السلطة الحديدية التى كان على رأسها زياد بن أبيه، فان الحجاز كان له موقفاً أشد صلابة عندما رفض ثلاثة من زعمائه الكبار البيعة ليزيد وهم: الحسين بن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير [۵۸] .كان هؤلاء – وهم جميعاً أبناء صحابيين كبار، تولى اثنان منهم (عمر وعلى) الخلافة والثالث (الزبير) نازع علياً عليها وقتل فى معركة الجمل – يحظون بمكانة عالية [صفحه ۵۸] فى الحجاز لا سيما الحسين الذى كان اكثرهم قدرة على تحريك الناس ضد معاوية والامويين. ومن أجل ذلك قرر معاوية أن يجابه الموقف بنفسه فى الحجاز ويخوض معركة ولاية العهد مباشرة، فذهب الى المدينة على رأس ألفى فارس وألقى فى مسجدها خطبة أشاد فيها بشخصية يزيد المؤهلة – بنظره – لتولى الخلافة، ثم غادرها الى مكة حيث انتقل اليها الزعماء الثلاثة ليبحث معهم مسألة ولاية العهد وليأخذ البيعة منهم طوعاً أو كرهاً. وكان هؤلاء قد كلفوا ابن الزبير محاورته باسمهم فرد عليه وأنكر محاولاته فى خرق الشرعية والخروج على سنة الأوائل من الخلفاء. وكان معاوية حاداً فى جوابه لابن الزبير اذ قال له مهدداً «أقسم باللّه لئن رد على أحد منكم كلمة فى مقالى هذا لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه فلا يبقين رجل الا على نفسه» [۵۹] وكان أيضاً مناوراً كعادته حيث جمع الناس فى المسجد وخطب فيهم: «ان هؤلاء – ويقصد بهم الثلاثة الممتنعين – قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله» [۶۰] .وكانت مداهمة معاوية لهؤلاء الزعماء واحراجهم [صفحه ۵۹] باعلان بيعتهم دون أن يأخذ منهم تصريحاً بذلك نهاية المطاف بالنسبة للجدل الذى أثير حول ولاية العهد. ولم يكن أمام زعماء الحجاز الا التسلح بالصبر والانضمام الى فريق الساخطين الذى أخذ حجمه يزداد يوماً بعد آخر، بانتظار الظروف الملائمة للتعبير بالوسائل السلبية عن الرفض المطلق لنظام الوراثة فى الحكم الذى ابتدعه معاوية.

الاحوال السياسية داخل العراق

لنعد الى الوراء قليلاً، الى بدايات التحرك الشيعى فى العراق بعد استسلام هذا الأخير الى معاوية. وهو استسلام لم يكن فى جوهره أكثر من استجابة للامر الواقع واعتراف اكراهى بالخلافة الاموية. فقد كانت هذه التغييرات السياسية تحمل فى صميمها، الكارثة للعراقيين الذين التزموا مصيرياً بالقضية العلوية ووقفوا الى جانب على الذى جعل من عراقهم مركز الحكم فى الاسلام، بما يعنيه ذلك من أهمية سياسية واقتصادية وما يعكسه من شعور بالتفوق، أصبح الآن أكثر وضوحاً من قبل.واذ ينقلب الموقف وتتحطم الاحلام وتنهار المكاسب، كان لا بد من تقويم لما جرى ووضع الامور فى نصابها. وفى غمرة ذلك وجد العراقيون أنفسهم يتحملون وزر هذا المصير الذى آلوا اليه، ويتتبعون بأسى الصورة القاتمة [صفحه ۶۰] لمستقبلهم السياسى فى ظل السيادة الاموية. ولم يكن هنالك ادنى ريب فى أن أية مقارنة بين النظام السابق والنظام الجديد ليست فى بال على الاطلاق. فمعاوية ما كاد يستتب له الامر فى العراق، حتى انهارت تلك الصورة الزائفة التى اقترنت بها شخصيته، القائمة على الحنكة والدهاء.. فاذا به فى العراق انساناً آخراً ونموذجاً مختلفاً.وكان معاوية يعرف جيداً أن أقلية ضئيلة فقط بايعته ربما على قناعة أو سعياً وراء مصلحة خاصة. أما الغالبية فقد بايعته مكرهة

وتحت التهديد. وكان يعرف أيضاً أن هذه الفئة الرافضة بمختلف فصائلها ستنقلب عليه، ان لم يكن اليوم فغداً.أخذت ملامح السياسة الجديدة للخليفة الاموى، القائمة على التحدى والاستفزاز والمبادرة بالعنف، تتبلور بالنسبة للعراق وتوحى بأن أحداثاً خطيرة سيشهدها هذا الاقليم. فقد أرسل معاوية أحد البارزين فى نظامه وهو المغيرة بن شعبة، والياً على الكوفة ومعه صلاحيات مطلقة، وتوجيهات بشتم على من فوق منبر المسجد، ومراقبة تحركات زعماء الشيعة وملاحقة المتحمسين منهم للقضية العلوية [۶۱] ولقد نفذ المغيرة باخلاص تعليمات سيده، [صفحه ۶۱] ولكن بأسلوبه المرن الذى عرف عنه. فشغل الكوفيين بحرب الخوارج ودفع بصفوة زعمائهم الى أتونها، ليصرفهم عن مقارعة السلطة واثارة المشاكل ضدها. وقد لاقت سياسته نجاحاً نسبياً فى هذا المجال، ولكن التجرؤ على مهاجمة الخليفة الراشدى لم يستسغه الكوفيون ووجدوا فيه اهانة صريحة لهم وانتهاكاً لقيمهم ومعتقداتهم. وكان أن اصطدم المغيرة بعدد من زعمائهم كحجر بن عدى أحد أبرز رجالات قبيلة كندة الشهيرة وأول من ثار بشدة على سياسة التجريح بالخليفة السابق، وصعصعة بن صوحان من بنى عبد القيس [۶۲] الذى نفى بأمر من المغيرة – بعد أن ضاق بمعارضته – ومات فى منفاه [۶۳] .ورغم ما أظهره المغيرة من براعة فى حكم مدينة تعج بالمتطرفين من أعداء النظام الذى يمثله، فان ذلك لم يعجب معاوية، الذى أخذ عليه تساهله مع العلويين وبشكل خاص موقفه ازاء حجر بن عدى [۶۴] ويحلل المغيرة هذا الموقف أمام منتقديه من أقاربه وامام معاوية [۶۵] بأنه تقدم فى السن ولا يجب أن يبتدأ عمله فى الكوفة بسفك دماء رجالها وقتل زعمائها [۶۶] . [صفحه ۶۲] ولم يكن شأن البصرة بمختلف عن الكوفة، فهى رغم عدم مماشاتها هذه الاخيرة بنفس الحماسة فى قضاياها السياسية، فان موقفها من النظام الاموى كان معروفاً ولم يتعد حدود التسليم بالامر الواقع. لذلك لم يكن عبد الله بن عامر، الوالى المعين فى البصرة، الشخصية المؤهلة، بنظر معاوية، لتنفيذ سياسته العراقية. وأخذ حينئذ يبحث عن شخصية قوية يعهد اليها بحكم العراق بكامله حيث ضاق ذرعاً بسلوك المغيرة فى الكوفة، فوجد أن أفضل من يقوم بهذا الدور هو زياد بن أبيه عامل على السابق على فارس، وكان لا يزال يحتفظ بمنصبه ويرفض الاعتراف بمعاوية. واستطاع معاوية اقناعه بالانضمام اليه وذلك بعدما استلحقه بأسرته [۶۷] وقد شغل المغيرة دوراً بارزاً فى اقناع زياد بالتخلى عن رفضه للنظام الاموى والانقلاب الى التعاون معه.ولم يلبث زياد أن صار أميراً على البصرة (هجرى) فنجح فى مهمته الى حد كبير، وأدى لمعاوية فوق ما يتطلبه من خدمات. وكانت خطبته الشهيرة (البتراء) التى فاجأ بها أهل البصرة مؤشراً لسلوكه الجديد وبرنامجاً واضحاً لسياسته العراقية المقبلة التى ستمتد على كل العراق بعد وفاة المغيرة [۶۸] وانتقال الكوفة اليه. [صفحه ۶۳] والامر الذى يثير الاستغراب بالنسبة لزياد، ذلك التحول المذهل من نقيض الى آخر. فبعد ان كان من أشد المؤيدين لعلى – الذى اختاره، لكفاءاته الادارية والسياسية، حاكماً على فارس دون الالتفات الى تصنيفه الاجتماعى – أصبح من أشد المتعصبين تطرفاً ضد العلويين، ومنسجماً الى أبعد حدود الانسجام مع معاوية فى أساليبه الانتهازية [۶۹] ففى نفس السنة [۷۰] التى جمعت فيها الكوفة لزياد افتتح نشاطه المعادى للشيعة بالقبض على حجر بن عدى [۷۱] وارساله الى دمشق حيث جرت له تصفية جسدية مع عدد من رفاقه على يد معاوية [۷۲] .لم يمر استشهاد حجر – دفاعاً عن مبادئه والتزاماً بمواقفه التى رفض أية مهادنة على حسابها – دون أن يثير موجات شديدة من الغضب فى صفوف الشيعة، خاصة فى الكوفة. ولم تستطع قبضة زيادة الحديدية اسكات المعارضة التى أخذت فى التبلور حينئذ. وعلى عكس ذلك [صفحه ۶۴] فقد أدى مقتل الزعيم الكوفى الى ولادة الحزب الشيعى، بأبعاد جديدة ومفاهيم سياسية وعقائدية خاصة. وفى خلال عشر سنوات أتيح لهذا الحزب أن يعبر هذه المحنة بصبر، وأن يجتاز هذا المناخ الارهابى وهو أكثر صلابة وأقوى ايماناً. [صفحه ۶۵]

خلافة يزيد و تحرک الحسين

مات معاوية فى العام الستين للهجرة، وفى نفسه شىء من الملك، بعد أن تربع على رأس السلطة أربعين عاماً كاملة نصفها كأمير والآخر كخليفة. ولعله شعر بالاطمئنان فى قرارة نفسه الى دوام الملك واستمرارية الخلافة فى أسرته بانتقال الامر من بعده الى يزيد. ولكن هذا الاطمئنان كان مشوباً بالقلق على مصير البنيان الذى شيده بالقوة وبنفاذ الصبر. فلم يكن هناك أى مجال للمقارنة بين الاب،

السياسى الـذكى وبين الابن، الأرعن الغارق فى العبث واللهو والمجون. وشاء معاويـة أن يغير هذه الصورة التى التصـقت بابنه، فأقحمه فى غمار مسؤوليات أثبتت الايام انه عاجز كل العجز عن تحملها. فقد أرسـله حاجاً الى مكة [۷۳] ووضعه على رأس حملة القسطنطينية الضـخمة. ولكن لا فريضة الحج صـبغته بالوقار، ولا قيادة الحملة [صفحه ۶۶] جعلت منه قائداً عسـكرياً لامعاً. فالصورة التى فى أذهان الناس ظلت كما هى تأبى أن تتغير.تسـلم يزيـد الخلافة اذاً، ومعها ميراثاً ثقيلاً من المشاكل، كان معاوية قد نجح فى تجميدها أو تأخير انفجارها. ومن أبرز هذه المشاكل، مشـكلة الخلافة نفسها. فهناك أكثر من طامح يتحين الفرصة المناسبة للوثوب فى سبيلها. ففى مكة اعتكف عـدد من زعماء العرب من أبناء الخلفاء السابقين وغيرهم، احتجاجاً على خلافة يزيد وتكريساً لعدم اعترافهم بها. وفى الكوفة، مركز الحزب الشـيعى الـذى سار شوطاً مهماً فى عمليـة البناء التنظيمى، اتخـذت الامور بعـداً آخراً تعدى الاحتجاج والرفض الى الثورة الشعبية.والواقع ان ملامح التحرك فى الكوفة بدأت فى وقت سابق أيام معاوية. فقد ذهب أكثر من وفد من الحزب الى المدينة وبحث مع الحسن فى شأن الثورة. وها هو سـليمان بن صـرد الخزاعى يخاطبه باسم أحـد الوفود: «فان شـئت فاعد الحرب جذعة، وأذن لى فى تقـدمك الى الكوفـة. فأخرج عنها عاملها وأظهر خلعه، وتنبذ اليهم على سواء ان الله يحب الخائنين» [۷۴] . [صفحه ۶۷] ولكن الحسن كـان يرى حينئـذ أن الاسـباب التى دفعته الى التنـازل لاـزالت قائمـة، والظروف نفسـها لاـزالت مهيمنـة وسط جو من الارهاب أكثر ما يصـيب العراق، الخزان البشـرى الاول لايـة ثورة شيعية مرتقبة.ولنستمع الى قول الحسن امام ممثلى الحزب:«ما أردت بمصالحتى معاوية ألاـ أن أدفع عنكم القتـل عنـدما رأيت من تباطؤ أصـحابى عن الحرب» [۷۵] .أو قوله:«... فصـالحت بقيا على شـيعتنا خاصـة من القتل، ورأيت دفع هـذه الحرب الى يوم مـا [۷۶] .كـان الحسن صادقاً فى تصـوير الموقـف الى حـد كـبير. فهو كزعيم لهـذا الحزب يتحمل مسؤولية أى تحرك قبل غيره. وأى فشل فى ظل هذه الظروف قد يؤدى الى تدمير الحزب والقضاء عليه نهائياً.وكان هذا رأى الحسين أيضاً حين تسـلم زعامـة الحزب فآثر عـدم الثورة فى عهـد معاويـة، والانصـراف الى تنظيم الحزب واعـداد عناصـره اعداداً جيداً بحيث يصبحون [صفحه ۶۸] على قـدر من النضـج والوعى قبل القيام بأى نشاط علنى.ولا بد من الاعتراف بأن مهمة الحسين لم تكن سـهلة أبـداً. لاـن أجهزة معاويـة كانت على جانب كبير من الخبرة والحـذر الامر الـذى كان يجعل من اتصالات الحسين أمراً عسـيراً للغايـة، خاصـة فى الفترة التى خضـعت فيها الكوفـة لزياد بن أبيه. وكان العامل الجغرافى يزيـد الامور تعقيـداً، بابتعاد قواعد الحزب عن قياداته بحيث سـيكون لهذا العامل الاثر الاكثر أهمية فى اخفاق ثورة الحسين وغيرها من الثورات الشيعية فيما بعد.بعد تسلم يزيد زمام الحكم أحس الجميع أن ثوب الخلافـة فضـفاضاً عليه، حيث كـان ينقصه الكثير من ذكـاء أبيه وحساباته الدقيقـة للاـمور، وكان ذلك فرصـة مناسبة للحزب الشـيعى فى الكوفـة بأن يتحرك.. فجرت اتصالات مع زعيم الحزب فى الحجاز، وكان حينئـذ يتعرض لمجابهة من قبل ممثل السـلطة الاموية فى المدينـة الوليـد بن عتبة، الذى تلقى أوامر الخلافة بالسـعى الى انتزاع الحسـين ورفاقة الرافضـين بأى ثمن.ولا يتَخلى الحسـين عن فطنته وبعـد نظره، وهو ذاهب لمقابلة الوليد على رأس مجموعة مسـلحة من أتباعه تحسـباً لاى طارئ [۷۷] وبجرأة متناهية رد على الوالى [صفحه ۶۹] بحضور شـيخ بنى أمية مروان بن الحكم: «ان مثلى لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرهـا على رؤوس النـاس علانيـة» [۷۸] .أدرك الوليـد مـا وراء كلمـات الحسـين من اصـرار على الرفض، ولم يشـأ أن يتمـادى فى الحوار معه أكثر من ذلـك، متجاهلاً ـ نصيحة مروان الـذى أشار عليه: «احبس الرجل ولا يخرج من عنـدك حتى يبايع أو تضرب عنقه» [۷۹] ... وفى صـباح اليوم التالى كان الحسين قد رحل الى مكة.وهناك شعر بوطأة السلطة تخف عن كاهله قليلاً، ولكن رحلته لم تقف عنـد هـذا الحد.. فلم تكن هرباً من البيعة وانما مواجهة مصـيرية لمسؤولياته ولقاء حاسـماً مع دوره التاريخى الذى كان فى انتظاره.فى مكة عاش الحسين مستغرقاً فى أفكاره وتأملاته لتكوين صورة واضحة للموقف النهائى. وفى الكوفة كان أركان الحزب الشـيعى يجتمعون فى منزل سـليمان بن صُـرد الخزاعى حينما تناهى اليهم خروج زعيم الحزب الى [صفحه ۷۰] مكة [۸۰] ، فقرروا أن الظروف مواتية للتحرك. فكتبوا الى الحسـين يطلبون منه القدوم وتسلم قيادة الثورة.أخذت الرسائل تتوالى على الحسين – وأكثرها من زعماء اليمانيـة البارزين – وفيها الحاح بعـدم التأخر. وانتظر الحسـين وقتاً ريثماً يسـتكمل دراسـته للموقف، ولم يكن ذلك تردداً وانما

تحسباً لا بد منه. فخروجه على النظام الاموى بات أمراً لا جدال فيه، لان يزيداً لن يدعه الا اذا بايع له، وقراره بشأن البيعة لا عدول عنه فالمصادمة بينهما اذاً واقعة وحتمية.وانطلاقاً من هذا الشعور قرر الحسين ارسال أحد معاونيه وثقاته وهو مسلم بن عقيل الى الكوفة ليطلع عن كثب على الموقف ويمهد له الطريق. وأرسل أيضاً مندوباً آخر الى البصرة حمّله صورة عن البرنامج السياسى للثورة ورسائل الى زعمائها أمثال الأحنف بن قيس والمنذر بن الجارود ومسعود بن عمرو وقيس بن الهيثم [۸۱] بهدف توسيع رقعة الثورة وفتح أكثر من جبهة ضد الامويين.ولكن الامور لم تسر فى البصرة كما فى الكوفة، فقد وصل مسلم هذه الاخيرة وحل فى منزل المختار بن أبى عبيد الثقفى وهو أحد زعماء الحزب الشيعى [۸۲] . [صفحه ۷۱] ومن هناك أخذ يجرى اتصالاته مع بقية الزعماء بسرية تامة، حتى اذا استكمل هذه الاتصالات وضمن التأييد الكافى للتحرك كتب الى الحسين يطلب منه القدوم.غير أن استخبارات السلطة وقفت على نشاط مسلم ورفعت تقريراً عنه الى أمير الكوفة النعمان بن بشير الانصارى، وكان معروفاً باعتداله، فرفض أن ينساق مع زبانية النظام باتخاذ أى اجراء ضد مسلم. فرفع هؤلاء تقريرهم مباشرة الى يزيد وفيه تحذير من نشاط مسلم ورغبة باستبدال واليهم الضعيف، بآخر قوى قادر على العنف ولا يرتبك من سفك الدماء.وكان ذلك أول امتحان لخلافة يزيد، أثبت صحة ما قيل فى شخصيته الانفعالية وفى كفاءته المحدودة فى عالم السياسة. فقد سارع الى عزل النعمان بن بشير فوراً، وتسمية واليه على البصرة عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة بالاضافة الى منصبه. وكان هذا ما تمناه زبانية النظام والمستفيدين من خيراته، فهذا الرجل خريج بارز من مدرسة العنف التى كان أبوه زياد أول مؤسسيها فى العراق، ولعله كان أكثر تطرفاً وأشد عنفاً من أبيه.أثبت عبيد الله أنه على استعداد دائم لاية مهمة يكلفه بها الخليفة، وكان هو على علم بتحركات الحزب الشيعى [صفحه ۷۲] عن طريق أحد الذين راسلهم الحسين [۸۳] وكان هذا كافياً لاجهاض أية مبادرة من البصرة للمشاركة فى التحرك. وبعد أن غادر هذه الاخيرة الى الكوفة عين عليها نائباً عنه هو أخوه عثمان بن زياد [۸۴] وأوصاه باستعمال الشدة والحزم.وفى الكوفة، حيث انتقل اليها عبيد الله ملثماً وعلى رأسه عمامة سوداء، أخذت الامور تنعقد على جبهة الحزب الشيعى وتلاحقت الاحداث فيها بسرعة مذهلة. فقد كان الناس حينئذ يترقبون وصول الحسين بين لحظة وأخرى، حتى انهم اعتقدوه ذلك الملثم الذى ظهر فى الكوفة. وبعد وصوله الى قصر الامارة أحاط ابن زيادة نفسه بالشرطة، ومن هناك أخذ يخطط لانقلابه، مستفيداً من البلبلة التى خلقها ظهوره فى الكوفة. بدأ أولاً بنشر جواسيسه فى المدينة لمعرفة مكان مسلم بن عقيل، حتى علم أخيراً انه فى منزل هانى بن عروة [۸۵] أحد الزعماء الشيعيين، فاستدعى هذا الاخير وسأله عن مسلم، فأنكر وجوده فى بيته. غير أن ابن زياد فاجأه بالجاسوس الذى شاهده فى داره [۸۶] ، [صفحه ۷۳] فاعترف هانى حينئذ ولكنه رفض تسليمه وأصر على ذلك رغم السجن والتعذيب «والله لو لم أكن الا واحداً ليس لى ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه» [۸۷] .وفى تلك الاثناء كان ابن زياد يقوم بحملة اعلامية واسعة لاستعادة زمام الموقف الذى أفلت، وفق مخطط ذكى وتكتيك بارع. فأوهم رؤساء القبائل بأن جيوشاً عظيمة من الشام تشق طريقها الى العراق [۸۸] ، ونثر رجاله فى شوارع الكوفة لتخذيل الناس عن مسلم ومحاولة التأثير عليهم نفسياً باشاعة جو من الذعر والخوف [۸۹] وقد أعطت هذه الحملة نتائجها الايجابية، ووجد رسول الحسين نفسه أخيراً فى قلة قليلة جداً من الانصار [۹۰] وفوجئ بشرطة ابن زياد يقودها محمد بن الاشعث تلقى عليه الحصار، فقاوم ببطولة ولكن دول جدوى. وسيق أخيراً الى قصر الامارة ليواجه مصيره بنفس الشجاعة البطولية [۹۱] ثم جيء برفيقه هانى بن عروة من سجنه وقد أنهكوه تعذيباً، وحمل الى السوق حيث أعدم أمام [صفحه ۷۴] جمهور من الناس [۹۲] وقبل أن ينبلج صباح اليوم التالى كان رأساً مسلم وهانى أول شهيدين فى ثورة الحسين، مغروسين على أسنة الرماح فى طريقهما الى دمشق.سارع ابن زياد الى تطويق ذيول ما يمكن أن يحدثه مصرع الزعيمين الشيعيين من ردة فعل فى الكوفة، فأبعد عنها عدداً من المتعاونين مع مسلم وقبض على أشدهم خطورة وزج بهم فى السجن من أمثال المختار بن ابى عبيد الثقفى وسليمان بن صُرد الخزاعى والمسيّب بن نجبه الفزارى وغيرهم [۹۳] واختفت فئة من هؤلاء، فلم تتمكن منها شرطة ابن زياد وجواسيسه.. وأما الذين استهوتهم اغراءات أمير الكوفة، فقد انضموا الى جانب السلطة وأصبحوا جزءاً من النظام الحاكم وصاروا يشكلون طبقة لها امتيازاتها الخاصة عرفت بطبقة الاشراف.والواقع ان الانقلاب الذى قاده ابن زياد ضد

مسلم فی الکوفة لم یکن یخلو من مغامرة. وقد ساعدته عدة عوامل علی نجاح انقلابه وافشال حرکة مسلم أهمها شخصیته السیاسیة الصارمة التی شابهت الی حد کبیر شخصیة أبیه، ثم الترکیب القبلی فی الکوفة ونجاح [صفحه ۷۵] أمیرها فی شق الوحدة السیاسیة لاکثر من قبیلة واستقطابه عدد غیر قلیل من رؤساء القبائل. وأخیراً فان التزام مسلم بخط اخلاقی واضح، هو خط الثورة التی کان یبشر بها جاء فی مصلحة ابن زیاد الذی استغل الظروف بأسلوب مناقض تماماً، فی وقت کانت فیه المبادرة فی ید مسلم، وکان بامکانه أن یبطش بعدوه [۹۴] ولکن اخلاقیته واطمئنانه الی موقف الکوفة دفعاه الی اضاعة هذه الفرصة المهمة من یده.وبذلک انطوت الصفحة الاولی من المأساة التی توّجها الحسین بسقوطه فی کربلاء دون أن تتم فصولاً. وفی تلک الاثناء کان الحسین قد غادر الحجاز (فی الثامن من ذی الحجة سنة ۶۰ هجری) متجهاً الی الکوفة ومعه نفر قلیل من أهله الاقربین، وهو لا یعلم من تفاصیل ما جری فی المدینة سوی أخبار الثمانیة عشر ألفا الذین بایعوا مسلماً علی الموت [۹۵] وقد یقول قائل أن خروجه تم قبل جلاء الصورة تماماً فی الکوفة، ولکن ألم تکن تکفی الاحتیاطات التی اتخذها والضمانات التی حصل علیها؟. وهل کان بامکانه أن یسلک طریقاً آخراً حینئذ طالما أصر [صفحه ۷۶] علی عدم الاعتراف بخلافة یزید؟ ثم هل کان خروجه مجرد حدث طارئ أو انفعال عفوی دون برنامج سیاسی محدد وأهداف اجتماعیة واضحة؟. ألم یأتی ذلک کله فی وصیته الی أخیه محمد بن الحنفیة؟ حین قال له: «انی لم أخرج اشراً ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وانما خرجت لطلب الاصلاح فی أمة جدی، أرید أن آمر بالمعروف وانهی عن المنکر. فمن قبلنی بقبول الحق فالله أولی بالحق، ومن رد علی هذا أصبر حتی یقضی الله بینی وبین القوم بالحق، وهو خیر الحاکمین» [۹۶] .وفی الطریق کان أول تقریر عن الکوفة قد وصله من الفرزدق [۹۷] حیث وضع أمامه الحقائق بکل مرارتها. ثم انجلت الصورة أکثر بلقاء عبد الله بن مطیع وکان قادماً من العراق حیث تشبث به وناشدة العودة [۹۸] ولکن جواب الحسین لم یتعد الآیة الکریمة «قل لن یصیبنا الا ما کتب الله لنا» [۹۹] .وتابعت قافلة الشهادة الصغیرة طریقها عبر الصحراء دون تردد حتی أصبحت علی بعد نحو عشرین میلاً من [صفحه ۷۷] الکوفة، وبلغ ذلک عبید الله بن زیاد فأخذ کافة احتیاطاته للحؤول بین الحسین والکوفیین، بفرضه حصاراً محکماً علی المدینة لمنع خروج أحد منها وبارساله حملة استطلاعیة من ألف رجل بقیاد الحر بن یزید لقطع الطریق علی الحسین [۱۰۰] والتضییق علیه ومنعه من الاقتراب من الکوفة.وفی نفس الوقت کان یعد للحملة الاساسیة التی عهد الیها بتصفیة الامر.. وکانت معدة بذکاء ومکر، وفوجئ القائد الذی وقع علیه الاختیار لقیادة الحملة وهو عمر بن سعد القرشی وابن الصحابی الشهیر سعد بن أبی وقاص. وحاول أن یتخلص من المهمة الثقیلة ولکن عبثاً، فقد أصر الامیر علی رأیه لاسباب لم تغب عن بال القائد المعین. ولم یکن بامکان ابن سعد الذی ذاق طعم السلطة وانغمس فی بؤرة السیاسة أن یصمد فی موقفه، وقبل المهمة خوفاً من ضیاع الولایة التی وُعد بها [۱۰۱] .وفی الیوم الثانی من محرم سنة ۶۱ هجری، وصل ابن سعد الی کربلاء [۱۰۲] علی رأس أربعة آلاف فارس [۱۰۳] . [صفحه ۷۸] ومعه تعلیمات مشددة من سیده بدعوة الحسین الی الاستسلام والبیعة لیزید، والا فالحرب.وفی خلال اسبوع من الحوار، لم یطرأ علی الموقف أی تغییر، فقد أصر الحسین علی رفضه لشروط القائد الاموی، وان کان قد طلب بأن تتاح له فرصة العودة الی الحجاز [۱۰۴] ولکن طلبه لم یجاب.وکان ابن سعد فی وضع لا یخلو من الحرج، فاذا ما تودد فی حواره مع الحسین کانت نظرات خبیثة تحدق فیه من شمر بن ذی الجوشن، الرجل الثانی فی الحملة، فیتذکر المهمة والولایة التی تنتظره [۱۰۵] .وفی العاشر من محرم حدث ما کان متوقعاً دون ایة مفاجآت، سوی انضمام الحر بن یزید الی جبهة الحسین التی لم تتجاوز السبعین بین فارس وراجل [۱۰۶] وکانت تلک النهایة المأساویة لثورة الحسین التی لم یقدر لها الوصول الی قاعدتها فی الکوفة، فاجهضت فی کربلاء، وکان ذلک المصرع البطولی الذی سجله الحسین ورفاقه، الذی هز ضمائر الناس ولا زال.. وابتدأ تاریخاً جدیداً فی حرکة النضال الشیعی سیستمر لآماد طویلة یُکتب بالتضحیات ویُسطر بالفداء.

تضعضع الاحوال السیاسیة فی نهایة عهد یزید

كان لسقوط الحسين بهذه الصورة المأساوية نتائج خطيرة فى تاريخ العراق والدولة الاموية عامة. فقد عاش الحزب الشيعى عقدة الذنب مثقلاً بمرارة الموقف الانهزامى الذى وقفه ازاء كربلاء. وتحرج النظام الاموى الذى لم يقدر فظاعة المأساة، وكان عليه ان يجابه نتائجها السريعة والمستقبلية التى اخذت تنعكس منذ ذلك الحين على بنية هذا النظام. وليس ثمة شك ان يزيد كان المسؤول الاول عن مجزرة كربلاء، وكان مسوقاً الى ارتكابها بدافع من قصر النظر وعدم صحة الرؤية، فقد اثبت فشله الذريع فى تبؤ مركز خطير كالخلافة ذلك المركز الذى بذل فى سبيله معاوية كل امكانياته وصرف كل جهوده من اجل الحفاظ عليه. ها هو يزيد يكاد يقضى بتصرف ارعن على كل انجازات ابيه برغم توصيات هذا الاخير له بعدم الصدام مع الحسين. [صفحه ۸۰] والواقع ان الدولة الاموية، لم تلبث ان اخذت تجتنى ثمرة كربلاء بصورة غير متوقعة وبدت عاجزة عن صد تيار الثورة الذى عم مختلف مناطق الدولة.ففى الحجاز، كانت المدينة مسرحاً لاول انتفاضة ضد السيادة الاموية تحركها عوامل مختلفة اهمها ما يتعلق بالعزلة السياسية التى فرضها معاوية على الحجاز منذ انتقال الخلافة الى البيت الاموى، وبنوعية العمال الذين انتدبتهم الدولة لحكم المدينة لا سيما عثمان بن محمد بن ابى سفيان وهو من عناصر البيت الاموى كان صغير السن، قليل التجربة [۱۰۷] وهكذا فان عوامل التحلل والنقمة كانت متوافرة فى الحجاز، ولكنها تنتظر المحرك والوقت الملائم.. فجاءت حادثة كربلاء تفجر المواقف وتطلق النفوس من عقالها.وقد حاول يزيد ان يتدارك الامر فى المدينة عن طريق التلويح باغداق الاموال عليها حيناً، وبالتهديد احياناً اخرى. ولكن موقف المدينة كان حاسماً ووصل قرارها فى الثورة على النظام الاموى نقطة اللارجوع. ففى المؤتمر الذى عقده زعماؤها فى المسجد، اتخذ قرار بالاجماع، بخلع يزيد ومبايعة عبد الله بن حنظلة الانصارى الذى اصبح زعيم الثورة [۱۰۸] والمسؤول عن تنفيذ مقررات المؤتمر وكان اولها [صفحه ۸۱] الهجوم على عناصر البيت الاموى فى المدينة، وكانوا مجتمعين بدورهم فى منزل كبيرهم مروان بن الحكم، فطردوهم من المدينة كما طردوا عاملها الاموى، وبذلك غدت عاصمة الاسلام الاولى خارج اطار السيادة الاموية.ولم يقف يزيد الذى اصطبغت يداه بدم الحسين، موقف المتفرج على احداث المدينة، وانما كان متصلباً، ومصمماً على ضرب الثورة بمنتهى الشدة والقسوة، ويبدو ذلك واضحاً من خلال شخصية القائد العسكرى الذى أوكل اليه مهمة القضاء على ثورة الحجاز، وهو مسلم بن عقبة الذى يصفه المؤرخون، بأنه أحد جبابرة العرب [۱۰۹] لصلافته وقسوته. ولم يخيّب مسلم أمل الخليفة به، فسرعان ما وصل بجيشه الى المدينة وضرب حولها الحصار. ولكن أهلها جابهوا الموقف بشجاعة وحفروا خندقاً [۱۱۰] حول مدينتهم استعداداً لحرب طويلة وقاسية. غير أن استعدادات المدينة لم تكن كافية للوقوف أمام جيش متفوق فى العدد والتنظيم والقيادة، فانتهت أحلامها الاستقلالية بالسقوط فى موقعة الحرة (هجرى ۶۸۳/ م) وبانتهاك مسلم حرمتها باباحتها لجنوده أياماً ثلاثة: «يقتلون الناس ويأخذون الأموال» [۱۱۱] . [صفحه ۸۲] وهكذا كان تحرك المدينة، استنكاراً مباشراً لمقتل الحسين ورفضاً للسيادة الاموية التى حادت برأيهم عن الشرعية وانحرفت عن روح الاسلام. ولم يكن اخضاع المدينة معناه القضاء على الثورة فى الحجاز، لان رايتها انتقلت الى مكة التى شهدت تحركاً أكثر عنفاً وضراوة.وفى مكة بلغ التحرك بعداً أشد خطورة، باعلان عبد الله بن الزبير ثورته ورفضه الاعتراف بخلافة يزيد. وقد جاء توقيت هذه الثورة بعد سقوط الحسين فى كربلاء، ليضعها فى اطار التحرك العام الذى شمل المنطقة بكاملها استنكاراً للمأساة ورد فعل مباشر لها. والحق انه برغم ما كان لمقتل الحسين من تأثيرات على هذه الثورة، الا اننا لا نستطيع أن نربطها بثورة الحسين والثورات الاخرى التى كانت امتداداً لها. ذلك ان ابن الزبير كان يعد نفسه للثورة بمعزل عن الحسين وقبل أن يتحرك هذا الاخير الذى وقف عائقاً أمام طموحه الى السلطة، لان المكانة العظيمة التى احتلها الحسين فى نفوس الجماهير، لم تدع أى مجال للمنافسة. ونتيجة لذلك كان على ابن الزبير أن يتسلح بالصبر وأن يتصرف بذكاء الى أن يتبلور الموقف وتتوضح الامور وهو فى نفس الوقت لا يألو جهداً فى دفع الحسين للاستجابة الى نداء الكوفيين فى الذهاب الى العراق واعلان الثورة من هناك على خلافة يزيد.على اننا نخطئ اذا انزلقنا فى تصورنا لمدى تأثير [صفحه ۸۳] الحملة النفسية التى قام بها ابن الزبير ازاء منافسه الرئيسى الحسين لدفعه على الخروج، لان هذا الاخير كان يعمل وفق خطة مرسومة وفى اطار من الحذر [۱۱۲] وسلامة الرؤية. وكان يدرك جيداً ما وراء هذا التشجيع [۱۱۳] لتحديد موقفه والاسراع فى مغادرة

الحجاز «لو كان لى فى الكوفة مثل شيعتك ما عدلت عنها» [۱۱۴] فوجوده فى هذا الاقليم كان ثقيلاً على ابن الزبير الذى «عرف ان أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبداً ما دام الحسين بالبلد وأن حسيناً أعظم فى أعينهم وأنفسهم منه وأطوع فى الناس منه» [۱۱۵] انها حقيقة أدركها الحسين بكل أبعادها، ومع ذلك اتخذ الطريق الى العراق للقيام بمسيرته التاريخية، وهى الثورة على «الظلم ودك صروح الطغيان»، واقامة مجتمع عادل متحرر من الطبقية والقهر والاستغلال [۱۱۶] . [صفحه ۸۴] وفى نفس الوقت لم تكن الحجاز بنظر الحسين الارض الصالحة لحركة سياسية ناجحة، فقد أفسدها تطاحن الاحزاب وشراء الضمائر، واصرار معاوية على ابقائها معزولة عن الاحداث، فعاشت فى الظل نحو ربع قرن من الزمن، فضلاً عن قلة مواردها الاقتصادية [۱۱۷] وعدم اكتفائها الذاتى الامر الذى كان يجعل من استمراريتها وحيدة فى التصدى للنظام الاموى أمراً فى غاية الصعوبة. لذلك كان العراق بضخامة موارده البشرية والاقتصادية، الارض الصلبة التى توفر الطمأنينة، وتجعل فرص النجاح أقرب الى التحقيق.لبث ابن الزبير معتصماً فى المدينة المقدسة، يرقب من بعيد سير الاحداث، حتى جاءته الاخبار تنقل اليه مصرع الحسين فى كربلاء، فلم يتردد فى اتخاذ الموقف الذى كان يتوق الى اتخاذه وهو اعلان الثورة على النظام الاموى والاستقلال بالحجاز، مستغلاً كما حدث فى المدينة بشاعة المجزرة فى تكتيل الجماهير الغاضبة حوله وتحريكها بشكل عاصف ضد الامويين قتلة الحسين، ولكن ثورته اختلفت عن ثورة المدينة بأن هذه الاخيرة انعكست عليها كربلاء بكل ما فجرته من غضب وحقد، بينما كان الطموح الشخصى [صفحه ۸۵] فقط هو جوهر الثورة التى قام بها ابن الزبير وأكثر سماتها بروزاً.واذا كانت قوات الخلافة الاموية قد تمكنت من حسم الموقف سريعاً فى موقعة الحرّة التى انتهت بفشل ثورة المدينة، فان الموقف كان أشد حراجة فى مكة قاعدة ابن الزبير التى أخذت تتوسع بعدئذ لتشمل الحجاز كله، ثم العراق ومصر. ذلك ان هذه القوات فقدت فى الطريق قائدها الصلف متأثراً بشدة المرض وتقدم السن. فخلفه فى القيادة بناء على وصية من يزيد أحد معاونيه والمتفانين فى خدمة النظام الاموى هو الحصين بن نمير السكونى [۱۱۸] .وصل الحصين بن نمير بقواته الى مكة وضرب حولها الحصار، وأثبت فى صلافته انه تلميذ متفوق لمسلم بن عقبة. أما ابن الزبير فقد تحصن فى الكعبة وسد منافذ المدينة، وكان قد قوى مركزه حينئذ بما انضم اليه من الحلفاء كبعض الهاربين من موقعة الحرّة، وجماعة الخوارج النجدية [۱۱۹] والازارقة [۱۲۰] فضلاً عن المختار الثقفى الذى بدأ يبرز كشخصية قوية أثر التطورات السياسية التى رافقت كربلاء وتمخضت عنها. وازداد مركز ابن الزبير [صفحه ۸۶] قوة، حين أصبح المعارض الاول للنظام الاموى والرجل الذى يحظى بتأييد غالبية المسلمين، التى استنكرت اقدام جيش يزيد على غزو مكة، واشتد سخطها حين أخذت مجانيق هذا الجيش ترمى بقذائفها الكعبة [۱۲۱] مرتكبة أول عمل جرىء من هذا النوع، سيظل يستثير حفيظة المسلمين على مر الايام [۱۲۲] وفى غمرة هذه الاحداث، تأتى الانباء ناعية يزيد، الذى ترك الخلافة الاموية لمصيرها الغامض. واذ ذاك توقفت العمليات الحربية فى المدينة المقدسة (هجرى)، ودخل القائد الاموى فى مفاوضات مع ابن الزبير انتهت باجتماع الرجلين فى (الأبطح) [۱۲۳] لمناقشة الوضع السياسى العام. وقد حاول الحصين اقناع ابن الزبير بالذهاب الى الشام ومبايعته بالخلافة. ويبدو ان القائد الاموى أدرك ان الامور تتجه لمصلحة ابن الزبير، فأراد ان يخوض به معركة الخلافة فى دمشق. ولكن هذا الاخير رفض عروض الحصين الذى سارع بالعودة الى عاصمة الخلافة ليكون على مقربة من تطورات الاحداث فيها.والواقع ان استنكاف ابن الزبير عن الاستماع لنصيحة [صفحه ۸۷] الحصين فى الذهاب الى دمشق، قد فوّت عليه فرصة عظيمة من فرص الوصول الى الخلافة. فقد شغر هذا المنصب بوفاة يزيد، واحتدم الصراع عليه بين أفراد الاسرة الحاكمة، والعاصمة الاموية فى غمرة ذلك تبحث عن رجلها القوى دون جدوى لفترة غير قصيرة.ولا ريب ان غياب يزيد المفاجئ، قد أحدث بلبلة فى مختلف أقاليم الدولة الاموية، وأخذ التحرك فيها يتصاعد ويحمل بعداً جديداً، ستحدد على ضوئه موقفها من مسألة الخلافة بصورة عامة. وكان من الطبيعى فى غمرة هذا الفراغ السياسى وهذا الجو المشحون بالتناقضات، أن يتبارى الطامحون الى السلطة فى استغلال المواقف وانتهاز الفرص لاستقطاب اكبر عدد من الناس حول قضيتهم. وكان العراق، الذى ما قبل يوماً السيادة الاموية الا مرغماً، المسرح الذى تمثلت فيه صورة الرفض لهذه السيادة وما تمخضت عنه من أحداث عنف واضطرابات متواصلة. فالبصرة التى عرف عنها بعض التحفظ فى

مواقفها العدائية من الحكم الاموى كان عليها هذه المرة أن تأخذ قرارها بسرعة، أما الاعتراف بخلافة ابن الزبير، الرجل الذى اتجهت اليه الانظار حينئذ كأقوى شخصية فى العالم الاسلامى، واما المضى فى خضوعها للسيادة الاموية التى يمثلها عبيد الله بن زياد. وقد اغتنم هذا الاخير [صفحه ۸۸] الفرصة فحاول أخذ البيعة لنفسه باسم الامويين، بانتظار ما يسفر عنه الموقف فى دمشق، ولكن محاولاته فشلت وأرغم على الخروج مطروداً من المدينة [۱۲۴] .بايعت البصرة بعد ذلك، أحد رجالها، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل [۱۲۵] ولكنه فشل فى مهمته، لان المدينة تحولت الى مسرح للفوضى، تعانى من التطاحن القبلى واشتداد ضغط الخوارج، وفشل أيضاً الذين جاءوا بعده [۱۲۶] ، فكتب أهلها الى ابن الزبير يبايعونه ويطلبون اليه انتداب رجل يتولى الامر فيهم ويدفع عنهم خطر الخوارج [۱۲۷] والواقع ان تدهور الموقف فى البصرة وصل الى مرحلة بالغة الخطورة، الامر الذى دفع سكانها الى توحيد كلمتهم والاحتكام الى خليفة الحجاز، فلبى هذا الاخير طلبهم وبعث اليهم الحارث بن عبد الله بن ربيعة [۱۲۸] فساعد كثيراً فى اقرار السلام فى تلك المنطقة، حتى اذا جاء مصعب بن الزبير بعد ذلك بقليل عاد الهدوء تماماً الى البصرة وتحدد موقفها بصورة واضحة. [صفحه ۸۹] وفى الكوفة، التى عاشت تحت وطأة التقصير والخذلان فى أعقاب مصر الحسين، كان الموقف يزداد غلياناً، خاصة وأن الاسلوب الاموى التقليدى القائم على الضغط والارهاب، نحو هذه المدينة المعروفة بميولها العلوية المتطرفة، لم يتغير ولم يطرأ عليه تعديل. فقد استمر التنكيل الاموى يتصاعد بعد كربلاء، وكان الأداة التنفيذية له، نائب عبيد الله بن زياد فى الكوفة، عمرو بن حريث. ومن البديهى القول ان هذه المدينة، كقاعدة أساسية للحركة الشيعية، اختلفت فى موقفها من النظام الاموى عن البصرة، فاذا كان موقف هذه الاخيرة قد امتزج ببعض التحفظ قبل أن تعلن قرارها الحاسم، فان الكوفة لم تكن بحاجة الى التردد، فقد اتخذت قرارها سريعاً وهو طرد عاملها عمرو بن حريث ممثل النظام الاموى فيها، وتولية عامر بن مسعود مكانه، ثم كتب أهلها الى ابن الزبير بشأن ذلك فأقر ابن مسعود فى منصبه [۱۲۹] ، وبذلك خرج العراق بكامله من السيادة الاموية وانضم الى ابن الزبير.اما فى دمشق فان وضع الخلافة الاموية ازداد تحرجاً بتنازل خليفة يزيد، معاوية الثانى، عقب ظروف غامضة، مسدياً – دونما قصد – خدمة كبيرة لخلافة ابن الزبير. [صفحه ۹۰] فأدى ذلك الى نشوب أزمة سياسية عنيفة فى دمشق واجهت النظام الاموى وكادت ان تقضى عليه [۱۳۰] وتفاقم التطاحن بين القبائل حتى بلغ مرحلة من الخطورة بعيدة [۱۳۱] فقد أيدت القبائل القيسية بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى وزفر بن الحارث الكلابى ابن الزبير، بينما ايدت القبائل اليمانية بزعامة حسان بن بحدل الكلبى [۱۳۲] ، مروان بن الحكم الذى طرح نفسه كمرشح للخلافة والتف حوله المؤيدون لبنى أمية وبايعوه [۱۳۳] فى مؤتمر الجابية سنة ۶۴ هجرى /۶۸۴ م الذى عالج مسألة الخلافة والانقسامات فى البيت الاموى. وكان هذا المؤتمر خطوة أولى ومهمة لاجتياز المحنة وخروج الخلافة من مأزقها. ثم كانت الخطوة الثانية والحاسمة عندما التقت جيوش المتنافسين فى مرج راهط فى معركة طاحنة انتهت بانتصار مروان وحلفائه من القبائل اليمانية، وهزيمة قاسية للقبائل القيسية، حلفاء ابن الزبير، ومقتل زعيمها الضحاك وثلاثة من أبناء زفر بن الحارث [۱۳۴] . [صفحه ۹۱] وهكذا قدر للامويين الاحتفاظ بالخلافة وانتزاعها مرة ثانية بالقوة، بعد أن اوشكت على الضياع والانتقال الى الحجاز. غير أن فرعاً آخراً أمسك بزمامها، هو الفرع المروانى الذى تقلدها حتى سقوط الخلافة الاموية [۱۳۵] . [صفحه ۹۵]

التوابون (الشعور بالذنب والتقصير)

اشاره

عاد ابن زياد، المنفذ الرئيسى لمجزرة كربلاء، الى الكوفة يحمل فى كفيه وزر الجريمة النكراء دون أن يرتعش لهولها او يدخل فى روعه الندم. فقد كان مستعداً للسير فى خدمة النظام الاموى، وهو أحد أركانه، بلا حدود، بعيداً عن أى التزام يتعدى المصلحة الخاصة أو المكاسب الشخصية. لذلك نجده يدخل الى المدينة التى كانت تمثل القاعدة الجماهيرية الاولى للحسين، والارض التى كان ينبغى

أن تشتعل فوقها الثورة، متحدياً شامخاً، وكأنه ينتظر وسام البطولة. ألم يصل به الامر ذروة التحدى حين وقف على منبر الكوفة فى محاولة منه لتسويغ ما جرى فى كربلاء متهجماً على الحسين وواصفاً اياه بالكذاب ابن الكذاب، وحين أمر بقتل أحد الكوفيين الذى انتقض عليه ورد على التحدى بمثله [۱۳۶] .وكانت الكوفة حينئذ أشبه ببركان عشية الانفجار، فهى أكثر من غيرها تتحسس ثقل الذنب ومرارة الندم، باعتبارها طرفاً مباشراً ومسؤولاً فى قضية الحسين. فهى [صفحه ۹۶] التى ألحت عليه بالخروج الى ارض الثورة التى تتعطش الى قائدها المنتظر، ثم تقاعست فى أحرج الظروف عن الالتزام بما وعدت به والوفاء بالعهد الذى قطعته على نفسها. واذا كانت الاحداث التى تلاحقت بصورة مفاجئة بُعيد تحرك الحسين من الحجاز، قد حالت دون القيام بواجبها وتنفيذ مخططها المرسوم، فان ذلك لم يكن ليخفف عنها عمق المأساة لانها افتقدت بمصرع الحسين الشخصية الاكثر جدارة التى وضعت فيها الشيعة كل آمالها وطموحها للوصول الى الحكم.والواقع انه ليس من الصعوبة أن يتصور المرء وضع الكوفة فى تلك الفترة القلقة من تاريخها، فقد كانت تتفاعل بالغضب ويحدق بها شعور بضخامة الاثم الذى غرقت فيه. وكان لابد من مخرج لهذه المحنة وتصحيح للموقف المتخاذل بآخر يجلو عنها بعض العار، ويخفف عن كاهلها شيئاً من فداحة الذنب. فالمدينة كانت معبأة بالحقد وتتفجر بالثورة ضد النظام الاموى، المسؤول عن مقتل الحسين. وعلى ذلك لم يكن صعباً على أى زعيم او مغامر ان يكتّل المدينة بمعظمها ويقودها الى الثورة ورفع راية العصيان على الامويين. ولكن الكوفة حينئذ برغم موجة السخط والتذمر التى شملت مختلف فئاتها، كانت تفتقر الى الموقف [صفحه ۹۷] المتجانس والرأى الموحد. فالتركيب البشرى والسياسى للمدينة كانت تتوزعه ثلاث قوى رئيسية:۱ - أنصار الثورة الذين يشددون على اتخاذ موقف سريع وحاسم.۲ - أنصار الثورة غير الايجابيين، وهؤلاء برغم حقدهم على النظام الاموى، فان موقفهم كان متردداً وتعوزه الجدية.۳ - أنصار السلطة القائمة، الذين كانوا على استعداد للتعاون مع أى شكل من أشكال النظام السياسى فى حدود حرصه على مصالحهم وحمايته لها، وكان هؤلاء يمثلون طبقة ارستقراطية لها نفوذها التقليدى ومصالحها الخاصة وهم أساساً من كبار رؤساء القبائل او الاشراف كما كانوا يعرفون.تلك هى التركيبة البشرية والسياسية للمجتمع الكوفى كما كانت تبدو فى أعقاب عودة ابن زياد وجنده من معسكره فى النخيلة [۱۳۷] بعد ارتكابه المجزرة، وكان ذلك مأساوياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، ومشهداً مؤثراً لم تستطع جماعة الحسين التى كان مقدراً لها أن تشارك فى ثورته، تحمله او السكوت عنه، ولذلك كان لا بد من التحرك والانتقام. [صفحه ۹۸] أخذ زعماء تلك الفئة المخلصة التى أطلقنا عليها «أنصار الثورة» وكان معظمهم من أصل يمانى يجتمعون بعد مقتل الحسين مباشرة فى اطار من السرية التامة ويعقدون مناقشات أشبه ما تكون بالنقد الذاتى لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذى أظهروه ازاء الحسين والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذى لحق بهم نتيجة هذا التخاذل. فقد جاء فى الطبرى: «لما قتل الحسين بن على تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت انها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين الى النصرة وتركهم اجابته، ومقتله الى جانبهم ولم ينصروه. ورأوا انه لا يغسل عارهم والاثم عنهم فى مقتله الا بقتل من قتله او القتل فيه» [۱۳۸] . [صفحه ۹۹]

مؤتمر الزعماء الخمسة

تزعّم التحرك الشيعى حينئذ خمسة من كبار الزعماء الكوفيين، المتقدمين فى السن [۱۳۹] الذين ارتبطوا تاريخياً بالحركة الشيعية وهم: سليمان بن صُرد الخزاعى، والمسيّب بن نجبه [۱۴۰] الفزارى، وعبد الله بن سعد بن نفيل الازدى، وعبد الله بن وال التميمى، ورفاعه بن شداد البجلى [۱۴۱] وكانوا جميعاً رفاق على ومن أشد المؤيدين له [۱۴۲] ومن خلال انتماءات هؤلاء الزعماء القبلية نلاحظ أنهم يتحدرون جميعاً من أصل يمانى، علماً بأن القبائل اليمانية لم تنتظم بكاملها فى هذه الحركة اذ غاب عنها عدد من أقطاب اليمانية مثل كندة ومذحج وهمدان، وقد عرف عن هذه الاخيرة بصورة خاصة تعصبها الشديد للقضية العلوية. [صفحه ۱۰۰] بدأ الزعماء الخمسة يمارسون نشاطهم فى الخفاء ويبشرون بدعوتهم الانتقامية فى أوساط الحزب الشيعى، بعيداً عن مراقبة السلطة

وجواسيسها المنتشرين فی کل مکان، فکان ان أثمرت جهودهم وشکلوا منظمة سرية نواتها نحو مائة [۱۴۳] من العناصر المتطرفة، لم تلبث أن تحولت الی منظمة کبری تحمل اسم التوابين، وقد صارت هذه التسمية هی الغالبة علی حرکة سليمان ورفاقه، وهی أصلاً منبثقة عن الآية الکريمة التی أصبحت الشعار الرئيسی لهم وهی: (فتوبوا الی بارئکم فاقتلوا أنفسکم ذلکم خير لکم عند بارئکم فتاب عليکم انه هو التواب الرحيم) [۱۴۴] .وکان الاجتماع الاول الذی ضم هؤلاء قد عقد فی منزل سليمان بن صُرد الذی وصف بأنه صحابی جليل [۱۴۵] وهذا يعطينا فکرة بأنه کان متقدماً فی السن رفيع المکانة فی مجتمعه، وربما کان لذلک اثر فی تصدره هذه الحرکة واحتلاله مرکز الزعامة فيها. لان المناقشات التی جرت فی هذا الاجتماع أظهرت أن المسيّب کان من أبرز الخمسة وألمعهم تفکيراً وأکثرهم عمقاً. وکان سليمان يعرف فی [صفحه ۱۰۱] الاصل باسم يسار، ويقال ان النبی هو الذی أطلق عليه اسم سليمان بعد اعتناقه الاسلام [۱۴۶] وقد هاجر فی وقت مبکراً الی الکوفة وشارک فی القتال الی جانب علی لا سيما فی حروب صفين، وان کان قد تخلف عنه فی يوم الجمل لاسباب غير واضحة تماماً، الامر الذی جعل علياً يلومه بشدة ثم يقبل عذره فيما بعد. ومما يثير الاهتمام ان علاقة سليمان بعلی وايمانه بقضيته کانت أکثر من مجرد تحالف عادی او مرحلی. فقد کان من أقرب أعوانه وأشدهم اخلاصاً. ويُستخلص هذا من المحاورة التی جرت بينهما اثر انتهاء معرکة الجمل حين بادره علی بقوله: «تربصت وتنأنأت فکيف تری صنع الله؟ فأجابه سليمان: الشوط بطين وقد بقی من الامور ما تعرف به صديقک من عدوک» [۱۴۷] وبعد وفاة علی ظل علی ولائه له حيث أظهر حماسة شديدة للحسين وکان من أوائل الذين کتبوا اليه من اجل التوجه الی الکوفة وتزعم ثورتها ضد النظام الاموی [۱۴۸] .کان الاتجاه العام للمناقشات يدور حول التکفير عن الذنب والمخطط الانتقامی الذی يمکن أن يزيل عنهم الشعور بالاثم، وذلک فی جو من الانفعال الشديد. والواقع انه لم يکن هناک شیء من برنامج الحرکة الشيعية [صفحه ۱۰۲] السياسی او الاجتماعی او الاقتصادی علی غرار ما ظهر قبل ذلک فی ثورة الحسين او ما ظهر فيما بعد من ملامح فی حرکة المختار الثقفی. وکان أول المتکلمين فی الاجتماع المسيّب بن نجبه الذی قال: (اما بعد، فانا قد ابتلينا بطول العمر والتعرض لانواع الفتن فنرغب الی ربنا الا يجعلنا ممن يقول له غداً أو لم نعمرکم يتذکر فيه من تذکر وجاءکم النذير فان أمير المؤمنين قال العمر الذی اعذر الله فيه الی ابن آدم ستون سنة. وليس فينا رجل الا وقد بلغه. وقد کنا مغرمين بتزکية أنفسنا وتقريظ شيعتنا حتی بلا الله أخيارنا فوجدنا کاذبين فی موطنين من مواطن ابن بنت نبينا. وقد بلغتنا کتبه، وقدمت علينا رسله، واعذر الينا يسألنا نصره عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً. فبخلنا عنه بأنفسنا حتی قتل الی جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصرة الی عشائرنا فيما عذرنا الی ربنا وعند لقاء نبينا صلی الله عليه وسلم وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله؟ لا والله لا عذر دون ان تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تقتلوا فی طلب ذلک فعسی ربنا أن يرضی عنا عند ذلک وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن) [۱۴۹] ثم أنهی کلامه بتشديده علی توحيد الصفوف ودعوة رفاقه الی انتخاب رئيس يفزعون اليه ويأخذون برأيه [۱۵۰] . [صفحه ۱۰۳] وتکلم بعد ذلک زعيم آخر هو رفاعة بن شداد، فأثنی علی ما جاء فی خطبة المسيّب وأوصی باتخاذ سليمان بن صُرد زعيماً للحرکة، مؤکداً فی الوقت نفسه علی الموضوع الرئيسی للاجتماع وهو التکفير عن الذنب اذ قال:(أما بعد فان الله قد هداک لاصوب القول ودعوت الی أرشد الامور والی جهاد الفاسقين والی التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منک، مستجاب لک، مقبول قولک. قلت ولوا رجلاً منکم تفزعون اليه وتحفون برايته وذلک رأی قد رأينا مثل الذی رأيت، فان تکن أنت الرجل عندنا مرضياً وفينا منتصحاً وفی جماعتنا محباً وان رأيت ورأی أصحابنا ذلک ولينا هذا الامر شيخ الشيعة صاحب رسول الله وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد المحمود فی بأسه ودينه والموثوق بحزمه أقول قولی هذا واستغفر الله لی ولکم) [۱۵۱] .وتعاقب علی الکلام عبد الله بن وال وعبد الله بن سعد فأيدا اقتراح رفاعة بتأمير سليمان الذی فاز بزعامة الحرکة من منافسة المسيّب الذی بدا کأبرز المجتمعين فی المؤتمر وظهر ميله الی تزعم الحرکة حين کان الوحيد بين الخطباء الذی أغفل اسم سليمان بشأن الزعامة.وتکلم سليمان بن صُرد وکان قد أصبح زعيماً [صفحه ۱۰۴] للحرکة مشيراً الی عظم الرزء وضخامة المأساة، ومشدداً علی النهوض لغسل الاثم والتکفير عن فداحة الذنب والسعی فی طلب الشهادة «انا کنا نمد أعناقنا الی قدوم آل نبينا،

ونمنيهم بالنصر، ونحثهم على القدوم. فلما قدموا ونينا، وعجزنا، وأدهنا، وتربصنا، وانتظرنا ما يكون، حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وبضعة من لحمه ودمه... الا انهضوا، فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا الى الحلائل والابناء حتى يرضى الله وما أظنه راضياً حتى تناجزوا من قتله او تبيروا. الا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قط الا ذل. كونوا كالاول من بنى اسرائيل، اذ قال لهم نبيهم: انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم» [۱۵۲] .والواقع ان هذه الخطبة الخطيرة وضعت الحركة موضع التنفيذ وجاءت بمثابة برنامج عام لها حيث تناولت النقاط التالية:۱ - الشعور بهول المأساة وفداحة الاثم.۲ - الاسراع باتخاذ موقف انتقامى من المسؤولين عن مقتل الحسين سواء الامويين ام المتواطئين معهم.۳ - تجسيد فكرة الاستشهاد بالتنازل عن الاملاك واعتزال النساء. [صفحه ۱۰۵] ۴ - الالحاح فى طلب التوبة عن طريق التضحية بالنفس.ومن خلال هذه المناقشات التى شهدها مؤتمر الزعماء الخمسة، تلاحظ انها دارت حول فكرة رئيسية هى التكفير عن الذنب، وهذه الفكرة لها جذورها البعيدة فى المجتمعات العراقية الغابرة، وأصولها القديمة فى ديانات ما بين النهرين، فضلاً عن الديانة المسيحية التى تسربت الى هذه المنطقة قبل مجيء العرب اليها. ولا ندرى اذا كان التوابون قد تأثروا فى هذا المجال بهذه الجذور التاريخية، ام ان ذلك شيء أصيل وذاتى فيهم، زاده بلورة تلك التجربة المريرة التى عاشوها فى أعقاب مصرع الحسين.انتهى المؤتمر ملتزماً بهذه المقررات الحاسمة، وملتزماً بزعامة سليمان بن صُرد أكبر الزعماء الخمسة سناً وأسبقهم فى الاسلام وأوثقهم علاقة بعلى وأسرته، وكذلك أرفعهم شأناً فى مكانته القبلية. وليس ثمة شك ان هذا الاختيار كان موفقاً وفى صالح الحركة، لان سليمان كان طرازاً فريداً بين رجالات الكوفة، شديد الايمان بالقضية التى رفع شعارها، مقتنعاً بضرورة الاخذ بمبدأ العنف لتصعيد حركة النضال الشيعى ضد أعدائها الامويين. «اتخذوا السيوف وركبوا الاسنة واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حين تدعوا وتستنفروا» [۱۵۳] . [صفحه ۱۰۶] فلم يكن هو، أو أحد من رفاقه ساعياً وراء مطلب خاص او مكسب شخصى، وانما كانوا طلاب قضية عامة هدفها اولاً الانتقام للحسين رأس الحركة الشيعية ورائدها فى تحقيق أمانيها السياسة، وثانياً ازاحة الامويين من السلطة فى الكوفة وتحويلها الى قاعدة للحكم الشيعى الذى ينبغى أن يسود مختلف أقاليم الدولة. وهذا يظهر بكل وضوح أن جماعة التوابين لم يطلبوا السلطة للتحكم، بل لتنفيذ مبدأ عام هو الاسلام. وكان بنظرهم السكوت عن ذلك وتخليهم عنه، يعتبر خيانة لقضيتهم، وتخلياً عن حق شرعى، وخرقاً لعهد الهى. ومن المهم هنا أن نشير الى ان هذه المبالغة فى نكران الذات، وطرح هذه الافكار المثالية، كانا بدون شك سبب ذلك الاخفاق المتواصل للحركات الشيعية والعامل الذى ساعد النظام الاموى على تصفيتها بكل سهولة. [صفحه ۱۰۷] وليس من باب الصدفة فقط ان يتولى قيادة هذه الحركة خمسة من الشيوخ اصغرهم قد نيف على الستين [۱۵۴] ولعل الباحث هنا يجد مدخلاً للتعرف الى جمهور الحركة ولتحديد الجيل الذى استمدت منه عناصرها بشكل عام. والارجح ان التوابين - لا سيما الذين تابعوا الشوط حتى آخره - قطعوا خريف العمر او كادوا. وهؤلاء تتجسد لديهم فكرة التوبة عادة اكثر من العناصر الشابة. ثم ان حركة من هذا النوع، اقتصر مضمونها على التضحية والغفران الا تجتذب جمهور الشبان الملتزمين بخط سياسى واضح والمؤمنين بالتغيير. وهذا ما يفسر انصراف عدد من الزعماء الشبان فى الكوفة عن هذه الحركة، كابراهيم الاشتر مثلاً الذى وجد فيها مضموناً ساذجاً وتحركاً فى غير أوانه.ولا شك ان هذا التجانس النوعى فى صفوف التوابين كان له بعداً خاصاً كرس أكثر فأكثر مفهوم التضحية والفداء. فهؤلاء لم يجزعوا كثيراً على ما تبقى من العمر بعد ان بلغوا الارذل منه وقطعوا حبل سنواته العجاف. [صفحه ۱۰۹]

الاتصالات

سارت الحركة فى اتجاه عملى، محافضة على سريتها التامة التى استمرت طيلة خلافة يزيد الاول [۱۵۵] ، وهى فترة حاسمة دأب فيها التوابون بكل امكاناتهم على تعبئة المقاتلين وجمع الاسلحة واستمالة الناس [۱۵۶] ، واتفقوا على ان يعقدوا لقاءات دورية لتقويم النشاطات التى قاموا بها والانجازات التى حققوها، ومن ثم لتحديد موعد للخروج واعلان الثورة. واستقر الرأى أخيراً على أن يكون

التجمع فی النخیلة [۱۵۷] فی نهایة ربیع الآخر من سنة ۶۵ للهجرة [۱۵۸] .کانت أولی الخطوات التنفیذیة التی قام بها سلیمان، هی محاولة استقطاب زعماء الکوفة واستمالة أکبر عدد من جماهیرها، والکتابة الی رجالات الحزب الشیعی فی البصرة والمدائن وسواهما من المدن العراقیة. وکانت هذه [صفحه ۱۱۰] الاتصالات تتضمن المفاهیم العامة للحرکة ومنطلقاتها، ثم الدعوة الی المشارکة فی مؤتمر النخیلة المذکور [۱۵۹] فقد کتب أمیر التوابین الی عامل المدائن، سعد بن حذیفة بن الیمان:«اما بعد، فان الدنیا دار قد أدبر منها ما کان معروفاً، وأقبل منها ما کان منکراً وأصبحت قد تشنأت الی ذوی الالباب وأزمع بالترحال منها عباد الله الاخیار وباعوا قلیلاً من الدنیا لا یبقی بجزیل مثوبة عند الله لا یفنی. ان أولیاء الله من اخوانکم وشیعة آل نبیکم نظروا لانفسهم فیما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبیهم الذی دُعی فأجاب ودعا فلم یُجب، وأراد الرجعة فحبس وسأل الامان فمنع وترک الناس فم یترکوه وعدوا علیه فقتلوه ثم سلبوه وجردوه ظلماً وعدواناً وغرة بالله وجهلاً... فلما نظروا اخوانکم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد خطئوا بخذلان الزکی واسلامه وترک مواساته والنصر له خطأ کبیراً لیس منه مخرج ولا- توبة دون قتل قاتلیه او قتلهم حتی تفنی علی ذلک أرواحهم» [۱۶۰] .کان وقع هذا الکتاب مؤثراً جداً علی شیعة المدائن، خاصة وأن عدداً من الکوفیین قد نزحوا الیها [۱۶۱] ، وهؤلاء [صفحه ۱۱۱] ظهروا شدیدی الحماس للاستجابة الفوریة الی دعوة التوابین. وما لبث ان جاء الرد ایجابیاً من عامل المدائن وشیعتها والاستعداد الکامل للتحرک فی الیوم الموعود الی النخیلة «اما بعد، فقد قرأنا کتابک وفهمنا الذی دعوتنا الیه من الامر الذی علیه رأی الملأ من اخوانک، فقد هُدیت لحظک ویُسرت لرشدک، ونحن جادون، مجدون، معدون، مسرجون، ملجمون ننظر الامر ونستمع الداعی فاذا جاء الصریخ أقبلنا ولم نعرج ان شاء الله» [۱۶۲] .وکان سلیمان قد أرسل نسخة ثانیة من کتابه الی المثنی بن محربة العبدی فی البصرة لکسب تأییده مع الشیعة هناک [۱۶۳] فأجابوا جمیعاً الی دعوته. وقد جاء فی رد المثنی «قرأت کتابک وأقرأته علی اخوانک فحمدوا رأیک واستجابوا لک، فنحن موافوک ان شاء الله للاجل الذی ضربت وفی الموطن الذی ذکرت» [۱۶۴] وبذلک أخذت دعوة التوابین تتسع فی أوساط الناقمین علی الحکم الاموی والمطالبین بدم الحسین، وتستجیب لها الجماهیر بحماسة ملتهبة «فکان یجیبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشیعة وغیرها» [۱۶۵] .

بدء التحرک و ظهور المختار

ظلت هذه الحرکة تعمل فی اطار من السریة، کما أشرنا، حتی جاء الخبر بوفاة الخلیفة یزید وبعده بقلیل ابنه معاویة الثانی فی ظروف لازالت غیر واضحة تماماً. وقد سبب ذلک أزمة حکم قاسیة فی عاصمة الخلافة الاموية لم تخرج منها الاسرة الحاکمة الا بصعوبة... (وقد ذکرنا ذلک فی فصل سابق وتطرقنا الی الظروف المحلیة والخارجیة التی عصفت بالحکم الاموی وکادت أن تطیح به). وبوصول أخبار التطورات السیاسیة فی دمشق الی الکوفة غمر هذه الاخیرة جو من الارتیاح، نابع عن التشفی بموت الخلیفة المسؤول الاول والرئیسی عن مقتل الحسین، وعن شعور متفائل باحداث بعض التغییرات فی صورة الحکم، فضلاً عما توفر من امکانیات أمام التوابین للقیام بنشاطهم العلنی وخروج دعوتهم الی حیز التنفیذ والمباشرة. حتی أن بعضهم نصح باستغلال الموقف المتدهور فی الشام [۱۶۶] . [صفحه ۱۱۳] واستباق الموعد الذی حددوه للتحرک. غیر أن حکمة سلیمان وبُعد نظره حالاً دون تنفیذ هذه الرغبة، لان الدعوة لم تکن قد رسخت جذورها بعد، لا سیما فی الکوفة التی افتقرت الی التجانس ووحدة الموقف. ویبدو ان أکثر ما کان یخشاه سلیمان ویتحسب له، هی تلک الفئة الانتهازیة من الکوفیین، الممالئة دائماً للنظام الحاکم، التی عرفت بالاشراف [۱۶۷] حتی أننا نجد ان سلیمان کان یصورها بأنها العدو الشرس للثورة والخصم الذی یجب التعامل معه بمنتهی الحیطة والحذر. «رویداً لا تعجلوا، انی قد نظرت فیما تذکرون فرأیت ان قتلة الحسین هم أشراف أهل الکوفة وهم المطالبون بدمه، ومتی علموا ما تریدون وعلموا انهم المطلوبون کانوا أشد علیکم» [۱۶۸] .وکان الابقاء علی موعد التحرک بدون شک فی صالح الحرکة التوابیة، اذ أن الاستجابة البشریة تضاعفت بعد موت یزید [۱۶۹] وما أحدثه من ارباک فی نظام الحکم، وساعد علی ذلک انتقال الحرکة من مرحلة السریة والعمل

تحت جنح الظلام الى دور النشاط العلنى والمجاهرة الصريحة. [صفحه ۱۱۴] ولقد تحولت الكوفة حينئذ الى مركز حيوى للنشاط السياسى بمختلف مظاهره وأبعاده. وما لبثت الاحداث أن أخذت تتلاحق بسرعة مذهلة لتترك بصماتها على المجتمع الكوفى بصورة عامة. ففى خلال السنة التى امتدت من وفاة يزيد الى اعلان التوابين ثورتهم فى النخيلة، تمخضت الكوفة عن أمور فى غاية الخطورة، لابد من التوقف عندها لنشير باختصار الى أكثرها فاعلية وأشدها تأثيراً فى تاريخ تلك الفترة.والواقع ان الكوفة سارعت الى تحديد موقفها من النظام الاموى والخروج عليه كما سبق أن ذكرنا. فقد أعلنت الثورة فى المدينة وهاجم الكوفيون دار الامارة وطردوا ممثل ابن زياد [۱۷۰] الذى كان يقيم فى البصرة وتعرض بدوره لحركة مماثلة. وقد أعقب ذلك فترة قصيرة من الفراغ فى السلطة الى أن جرى تسليم الحكم الى رجل اتفق عليه أشراف الكوفة وزعماؤها، وهو عامر بن مسعود [۱۷۱] الذى ما لبث ان دان بالولاء لعبد الله بن الزبير حيث تمكن فى تلك الاثناء من توطيد مركزه فى العراق. ولم يكن هذا الاجراء عائداً الى اقتناع الكوفيين بسلامة هذا الموقف، وانما كان ضرورة اقتضتها المصلحة ليس أكثر. فالاشراف من جهة [صفحه ۱۱۵] هم الذين يبدو أنهم شغلوا دوراً بارزاً [۱۷۲] فى حركة التمرد هذه، بعد أن أدركوا ان رياح الثورة الحجازية بدأت تهب بشكل عاصف على العراق، فسارعوا الى التودد لابن الزبير ابتغاء لضمان مصالحهم السياسية والاقتصادية، واستمراراً لها. وأظهر زعماء الحزب الشيعى من جهة ثانية استنكافهم عن تسلم الحكم برغم توفر فرص النجاح حينئذ، لان عناصر الثورة أرادت المسير وفقاً للخطة التى تم وضعها وتدور حول هدف محدد وثابت هو الانتقام، وكان فى ذلك تأكيداً على التجرد والمثالية والالتزام بالمبدأ.. هذه الافكار تشربها التوابون بكل عمق الايمان، وانعكست على حركتهم، فطبعتها بطابع مميز وفريد.وبسرعة غير متوقعة انتقل العراق الى سيادة الحزب الزبيرى وغدت الكوفة مرتبطة بثورة الحجاز التى انتفضت على النظام الاموى وهزت دعائمه بعنف، وتقبل شيعة الكوفة هذه السيادة الجديدة، ولكن بفتور وبشىء من التحفظ. فهى بنظرهم انقلاب على النظام الذى مجوه وعارضوه طويلاً.. غير أن العداوة المشتركة التى وحدت مشاعر الطرفين ضد الامويين، لم تمنع الحركة التوابية من رفض الاعتراف بالحزب الزبيرى كبديل مثالى للسيادة الاموية. [صفحه ۱۱۶] وفى تلك الاثناء كان ابن الزبير يعمل على تأكيد سلطته فى الاقاليم التى خضعت له بعد أن أصبح الرجل القوى فى العالم الاسلامى. وأخذ عماله الذين انتدبهم لادارة هذه الاقاليم يصلون تباعاً. ففى الكوفة التى يهمنا الوقوف على التطورات السياسية فيها عشية خروج التوابين، أرسل اليها اثنين من عماله أحدهما اختص بشؤون السياسية والحرب هو عبد الله بن يزيد الانصارى [۱۷۳] ، وثانيهما انصرف الى شؤون الادارة والخراج وهو ابراهيم ابن محمد بن طلحة [۱۷۴] ، حفيد الصحابى المعروف طلحة بن عبيد الله. وانتهت بذلك تلك الفترة الانتقالية التى تولاها باسم الحزب الزبيرى، عامر بن مسعود، لتصبح الكوفة احدى ولايات الخلافة الزبيرية.ولم تقتصر أحداث الكوفة على هذه التغييرات السياسية المهمة، وانما شهدت أحداثاً أخرى على قدر كبير من الخطورة، كادت أن تمزق الجبهة الشيعية، وان تبعثر قواها، وذلك بظهور أحد المغامرين بصورة فجائية فى الكوفة حينئذ، هو المختار بن ابى عبيد الثقفى [۱۷۵] وكان هذا الاخير شخصية مثيرة دار حولها كثير من الجدل، [صفحه ۱۱۷] فقد ارتبط منذ نشأته بالحركة الشيعية وتربى فى وسط شيعى مشبع بالاخلاص والحب لعلى وأبنائه [۱۷۶] ، ثم أعد نفسه ليكون أحد أركان الثورة التى كان مقدراً أن يقودها الحسين، حيث سبق هذا الاخير الى الكوفة ليشارك فى تهيئة المناخ الملائم للثورة، ولكن عامل العراق الاموى قبض عليه وأودعه السجن مع عدد من الزعماء الشيعيين [۱۷۷] وظل فى سجنه حتى أفرج عنه بعد توسط صهره عبد الله بن عمر لدى الخليفة يزيد [۱۷۸] فغادر الكوفة الى الحجاز وفى نفسه حقد لا يوصف ضد الامويين وعاملهم ابن زياد [۱۷۹] ولهذا لم يتردد فى الاشتراك مع ابن الزبير فى ثورته التى وجد فيها بعض أهدافه وهى العمل على مقاومة النظام الاموى بدون هوادة. غير أن الانجسام لم يستمر طويلاً بين الرجلين، فالمختار كانت له مطامحه السياسية واحلامه الاستقلالية، لذلك ما لبث ان زهد بدور التابع لابن الزبير وقفل عائداً الى الكوفة بعد أن سمع بطرد ابن زياد من العراق، فقد كانت الكوفة على الدوام قبلة طموحه ووجد انها الارض الملائمة لتحقيق هذا الطموح.. وقد بلغ من اهتمامه بها انه كان يستفسر عن احوالها من الوافدين الى [صفحه ۱۱۸] الحجاز، حيث حدثه أحدهم [۱۸۰] عن أهلها بقوله: «انهم فى صلاح واتساق على طاعة ابن الزبير، الا

ان طائفة من الناس اليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الارض الى يوم ما [۱۸۱] فأجابه المختار: «أنا ابو اسحق، أنا والله لهم، أنا أجمعهم على مر الحق، وأنفى بهم ركبان الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد» [۱۸۲] .وهكذا جاء المختار الى الكوفة، تتجاذبه أحلام السيادة والتحكم على المدينة بسهولة ويسر، معتمداً على تردد شيعتها من حكومة ابن الزبير، ومحاولة استقطابهم عن طريق شعار الثأر للحسين وهو نفس الشعار الذى طرحه التوابون، وتبعتهم جماهير الكوفة الشيعية من أجله. ولكن المختار اختلف عنهم بأنه ذهب الى أبعد من الانتقام والتكفير عن الذنب، الى السعى لاستلام الحكم [۱۸۳] وهو أمر رفضه التوابون. ولكى يزيد حجته تسويغاً، ويضفى على حركته نوعاً من الشرعية، زعم أن [صفحه ۱۱۹] أحد زعماء الاسرة العلوية [۱۸۴] أرسله للدعوة باسمه فى الكوفة.ولكن محاولات المختار لاستقطاب شيعة الكوفة تحت زعامته لم تصادف ما كان يتوقع لها من نجاح، لان فئة قليلة فقط استهوتها شخصية المختار واقتنعت بدعوته، بينما ظلت الاغلبية على تأييدها لابن صُرد [۱۸۵] ، ولم تتأثر بالحملة الدعائية الواسعة التى أحاط بها نفسه وهو فى طريقه الى الكوفة وبعد وصوله اليها حتى انها شككت بصحة ادعائه عن علاقته بمحمد بن الحنفية [۱۸۶] ولما أدرك ان معركته مع سليمان معركة خاسرة أخذ يصعد حملات التشهير ضد هذا الاخير متهماً اياه بقصر النظر وعدم الكفاءة لقيادة الثورة الشيعية الهادفة الى الانتقام من قتلة الحسين «ان سليمان ليس له بصر بالحرب، ولا تجربة بالامور، وانما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثال قد مثل لى، وأمر قد بين لى، فيه عز وليكم وقتل عدوكم وشفاء صدوركم، فاسمعوا قولى وأطيعوا أمرى» [۱۸۷] . [صفحه ۱۲۰] هذه الحملة النفسية التى قام بها المختار، لم يكن لها كبير أثر على جماعة التوابين الذين بلغوا من الاندفاع حداً بعيداً، وأصبح من المستحيل عليهم، التراجع أو التوقف عن الهدف الذى اقتنعوا به وآمنوا كل الايمان. وعلى العكس من ذلك فان نشاط المختار انقلب عليه، واشتدت مخاوف السلطة وأنصارها من تحركاته، حتى أن زبانية الحكم التى انتقل ولاؤها بسرعة مذهلة من النظام الاموى الى نظام ابن الزبير، ثقل عليها وجود المختار فى الكوفة فشكا نفر [۱۸۸] منها خطورة هذا الرجل الى عاملى المدينة بقوله: «ان المختار أشد عليكم من سليمان بن صُرد. ان سليمان انما خرج يقاتل عدوكم ويذله لكم وقد خرج عن بلادكم، وان المختار انما يريد أن يثبت فى مصركم، فسيروا اليه واوثقوه فى الحديد وخلدوه فى السجن حتى يستقيم أمر الناس» [۱۸۹] .وهكذا انتهى أمر المختار سجيناً فى الكوفة، ينتظر مرة أخرى من وراء قضبان السجن ما تؤول اليه الامور وما تسفر عنه الاحداث.. ولعله أدرك ان الفرصة ستلوح له من جديد بعد التخلص من منافسة زعيم التوابين، حيث [صفحه ۱۲۱] كان يتوقع الفشل الذريع لحركة هذا الاخير، فتخلو له الساحة حينئذ ويصبح الزعيم المنتظر لشيعة الكوفة. ولهذا لم يعد يتورع عن التصريح بين الحين والآخر، مباركاً التحرك الذى يقوده سليمان والحث على اعلان الثورة والخروج من الكوفة. وفى سجنه كان المختار لا ينفك يردد على مسامع زائريه انه لن يتخلى مطلقاً عما سعى اليه وجاء من أجله، أو يتوقف لحظة عن السير فى حملته الانتقامية، التى كانت عصب دعوته الرئيسى فى معاقبة المسؤولين عن دم الحسين، والمضى فى ملاحقتهم أياً كانوا وفى أى أرض ذهبوا اليها «أما ورب البحار، والنخيل والاشجار، والمهامة والقفار، والملائكة الابرار، والمصطفين الاخيار، لاقتلن كل جبار بكل لدن خطار ومهند بتار فى جموع من الانصار ليسوا بميل اغمار ولا بعزل أشرار. حتى اذا أقمت عمود الدين وزايلت شعب صدع المسلمين وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت بثأر أولاد النبيين، لم يكبر على زوال الدنيا ولم أحفل بالموت اذا أتى» [۱۹۰] .فاز سليمان اذا فى معركة الزعامة الشيعية ضد هذا المغامر الدخيل، الذى قدم من الحجاز باحثاً عن الزعامة ومتعطشاً الى السلطة. وفى تلك الاثناء كانت الحركة التوابية تدخل مرحلتها الحاسمة والصعبة، وكان زعماؤها [صفحه ۱۲۲] يصعّدون الجهود ويركزون الحملات الاعلامية عبر اتجاهين رئيسيين. أولاً: عن طريق التبشير بأفكار الدعوة [۱۹۱] والمفهوم الحقيقى للتحرك. وثانياً: عن طريق القيام بعروض شبه عسكرية والتجوال فى شوارع الكوفة وأسواقها مع سواها من المدن [۱۹۲] لاستثارة الجماهير واجتذاب أكبر عدد من المتطوعين للحركة.كانت سنة خمس وستين للهجرة (۶۸۴م) قد حلّت، وفى هذه السنة خرجت حركة التوابين من محتواها التخطيطى واطارها التبشيرى الى مرحلة التنفيذ الحاسم. فلم يعد يفصلها غير شهور قليلة عن موعدها الفاصل الذى حددته لانطلاقتها من (النخيلة). ومعنى ذلك أن الفئات الشيعية

التى التزمت مبدئياً بالحركة، كان عليها أن تبادر الى تحمل مسؤوليتها بالسرعة الممكنة. ولكن الذى حدث ان عدد المنتمين فعلياً الى الحركة حينئذ كان لا يزال قليلاً [۱۹۳] ، [صفحه ۱۲۳] بينهم الكثير ممن يعوزهم الانضباط والقناعة. وكان أشد التوابين ارتباكاً بهذه النتيجة وأكثرهم انزعاجاً هو زعيم الحركة الذى وجد ان هذا العدد [۱۹۴] لا يتناسب مع حجم القضية التى يقاتلون فى سبيلها. وكان لابد من تصعيد لعمليات الدعاية من أجل استقطاب المزيد من المؤيدين.. ومن الشعارات التى كثر ترددها حينئذ: «من أراد الجنة فليلتحق بسليمان فى النخيلة».. «من أراد التوبة فليلتحق بسليمان» [۱۹۵] الى غير ذلك من الشعارات التى لم تخرج عن اطار الغفران والتكفير عن الذنب.ولقد أعطت هذه الحملة بعض ثمارها ولاقت قدراً من التجاوب، ولكن المسألة لم تكن فى تجمع المؤيدين فى أسواق الكوفة [۱۹۶] بل فيمن يمتلك القدرة على الصمود والاستمرار عندما ترفع راية الحرب ويتعالى صورت النفير، وهؤلاء لم يتجاوز عددهم فى بادئ الامر الالف مقاتل، ثم ارتفع هذا العدد مع تصعيد الحملات الدعائية الى نحو أربعة آلاف مقاتل [۱۹۷] كانوا جميعاً مستعدين [صفحه ۱۲۴] للمسير حتى نهاية الشوط والاشتراك الفعلى فى حرب الامويين.واذا أردنا تفسير هذا التجاوب المحدود لحركة التوابين عندما بدأت تحركها الجدى، فانه يعود بدون ريب الى جو الكوفة المشحون حينئذ بالبلبلة والصراعات السياسية بعد خضوعها للحزب الزبيرى. فقد كان السواد من الناس فى حالة ترقب وانتظار ما تسفر عنه الاحداث.. فضلاً عن خلخلة الموقف على صعيد الجبهة الشيعية بمجيء المختار الى الكوفة وتأثيره على نفر من الشيعة الذين غادروا معسكر سليمان وانضموا اليه [۱۹۸] كذلك فان حركة التوابين كحركة مثالية، مجردة من أى هدف سياسى معين، كان هدفها الرئيسى هو الانتقام للحسين والموت فى سبيله.. وهذا ما يمكننا أن نعزو اليه ضعف الاستجابة نوعياً، والقلة العددية التى شاركت بصورة فعالة فى حركة التوابين.ولقد سبق التحرك العسكرى، انعقاد مؤتمر لزعماء التوابين لبحث الموقف العام وتوزيع المسؤوليات على العناصر القيادية ومناقشة اقتراحاتها حول كيفية التحرك والخطوات التمهيدية اللازمة. وكان هناك اتجاه على [صفحه ۱۲۵] رأسه عبد الله بن سعيد بن نفيل [۱۹۹] نحو القيام بعمليات انتقامية داخل الكوفة تستهدف بعض الاشراف المتهمين بتواطئهم مع النظام الاموى، ولكن سليمان رفض هذا الرأى وأصر على أن الهدف اولاً هو رأس عبيد الله بن زياد [۲۰۰] الذى بات المسؤول الاول بعد موت يزيد بن معاوية، ثم تأتى بعد ذلك مسألة الكوفة وأشرافها «ان الذى قتل صاحبكم وعبّى الجنود اليه، وقال لا أمان له عندى دون أن يستسلم فأمضى فيه حكمى هذا الفاسق ابن الفاسق عبيد الله بن زياد، فسيروا الى عدوكم مع الله، فان يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم فى عافية فتنظرون الى كل من شرك فى دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشموا، وان تستشهدوا فانما قاتلتم المحلين وما عند الله خير للابرار لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحلين. ولو قاتلتم أهل مصركم ما عدم رجل ان يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه او رجلاً لم يكن يريد قتله. فاستخيروا الله وسيروا» [۲۰۱] . [صفحه ۱۲۶] ومن الواضح ان المنطق وبعد النظر يتجليان فى موقف زعيم التوابين الذى لم يرد لحركته ان تخفق فى مكانها فى الكوفة، لان ذلك سيثير بدون شك حساسيات قبلية وسيفجر صراعات داخلية، وبالتالى سيؤدى الى استهلاك الحركة بدون طائل.وبعد تشاور، رأى زعماء الحركة ان قتلة الحسين موزعون فى أنحاء الارض، وليس سهلاً أن تطالهم سيوف التوابين كما يتصور البعض. لذلك ارتأوا أخيراً أن تكون الشام (قاعدة الطغيان) هدف حملتهم العسكرية التى يعدّون لها.. فهى مركز السلطة الاموية، المسؤولة قبل أى أحد عن قتل الحسين. وفى رأيهم ان النظام هو الذى ينبغى أن يحاسب وليس الاشخاص [۲۰۲] لان هؤلاء كانوا فقط الأداة التى نفذت الاوامر وقامت بما طلب منها خير قيام. [صفحه ۱۲۷]

التحرك

بعد أن توفر للتوابين هذه المعطيات، خطوا خطوتهم العملية الاولى على طريق الانتقام والتكفير عن الذنب، فغادروا الكوفة ليلة الجمعة فى الخامس من ربيع الثانى سنة ۶۵ هجرى / التاسع عشر من تشرين الثانى سنة ۶۸۴ م، ووجهتهم (النخيلة) المكان الذى ستلتقى فيه

وفود المتطوعين الذين تعاهدوا على الالتحاق باخوانهم فى الموعد المحدد.وبعد اقامة سليمان ورفاقه أيام ثلاثة [۲۰۳] فى المعسكر، لم تكن الاستجابة فى المستوى المقدر لها، وانخفض العدد الذى التزم بالخروج مع زعيم الحركة الى الربع تقريباً، حيث قدر ان آخر ما وصل اليه تجمع التوابين فى النخيلة لم يتجاوز الاربعة آلاف مقاتل [۲۰۴] ، وربما انخفض الى ثلاثة آلاف وثلاثمائة مقاتل ابان المعركة الفاصلة [۲۰۵] . [صفحه ۱۲۸] وكان من أبرز المتخلفين شيعة المدائن والبصرة [۲۰۶] فضلاً عن تخلف عدد غير قليل من شيعة الكوفة..وما كان لعزوف الكثيرين عن تلبية دعوة سليمان فى (النخيلة) أى تأثير على معنويات زعماء الحركة او أى انعكاس على عزائمهم الثابتة. فقد بلغ بهم الايمان حداً جعلهم لا يفكرون الا بالهدف الذى خرجوا من أجله، ولن يعيقهم عن تحقيقه عائق مهما بدت الطريق اليه صعبة وشائكة. وما أروع ما جاء فى خطاب سليمان، فى تلك الفترة الحرجة التى لا يصمد فيها سوى اصحاب الايمان، متحدثاً عن محتوى الهدف الذى هم سائرون لتحقيقه: «ايها الناس فان الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وان للدنيا تجاراً وللآخرة تجاراً. فأما تاجر الآخرة فساع اليها منتصب بتطلابها لا يشترى بها ثمناً لا يُرى الا قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة. واما تاجر الدنيا فمكب عليها راتع فيها لا يبتغى بها بدلاً. فعليكم يرحمكم الله فى وجهكم هذا بطول الصلاة فى جوف الليل، وبذكر الله كثيراً على كل حال وتقربوا الى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه حتى تلقوا هذا العدو والمحل القاسط فتجاهدوه، فانكم لن تتوسلوا الى ربكم بشىء هو اعظم [صفحه ۱۲۹] ثواباً من الجهاد والصلاة، فان الجهاد سنام العمل جعلنا الله واياكم العباد الصالحين والمجاهدين الصابرين على اللأواء. وانا مدلجون الليلة من منزلنا هذا ان شاء الله فأدلجوا» [۲۰۷] .كان لهذه الخطبة تأثيرها الجلى فى نفوس التوابين، وفى تهيئة المناخ المثالى والملائم للبدء فى عملية التنفيذ... واطمأن سليمان فى أعماقه وأيقن ان القوم فى (النخيلة) سائرون معه دونما تردد. فغادروا جميعاً المعسكر متخذين طريق كربلاء حيث قبر الحسين حاملين اليه آلامهم بكل تفجعها وذنوبهم وقد بلغت من الثقل حداً لا يطاق... وأى لقاء سيكون أشد ايلاماً وأقسى مرارة من لقاء التوابين بالحسين، لقاء المذنب المستغفر فى حضرة صاحب الشفاعة، لقاء المتخاذل عن نصرة الحق فى مقام شهيد الحق. كان ذلك مواجهة مباشرة مع الذنوب، مع الخطايا، مع الضمير الذى استفاق.. مواجهة تجلت فيها ضخامة المأساة، وقتلت لديهم كل احساس بالكبرياء ورغبة فى العيش، وفوق ذلك كان تجمعهم حول قبر الحسين، جزءاً من التحرك الذى حانت ساعة تنفيذه... فهو لن يقتصر على الانفعالات وطلب الغفران، وانما كانت له [صفحه ۱۳۰] أيضاً أبعاده السياسية لتكريس الميثاق الذى التزموا به، ووضع أنفسهم فى أجواء الشهادة التى بلغت أسمى درجاتها البطولية مع سقوط الحسين فى كربلاء.وقد يذهب بنا الخيال بعيداً الى ذلك الزمن، وينقلنا الى تلك الارض، فنتصور رهبة اللقاء وضجيج التوابين وهم يدورون حول قبر الحسين، ينشدون بصوت موحد نشيد الغفران والتوبة، ويهزجون بايمان عميق اهزوجة الموت والشهادة: «اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا، وقد أسأنا وأخطأنا، فاغفر لنا ما قد مضى من ذنوبنا، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم. اللهم ارحم الحسين، الشهيد ابن الشهيد وارحم اخواننا الذين حصنّوا أنفسهم معه بالشهادة. اللهم ان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» [۲۰۸] .وفى اثناء ذلك، كانت أخبار التحرك والاستعدادات تتسرب الى مسامع أشراف الكوفة، الذين أحدق بهم الخوف والهلع على مصيرهم. وكان أشدهم قلقاً عمر بن سعد الذى التجأ الى قصر الامارة طلباً للحماية والامان [۲۰۹] . [صفحه ۱۳۱] ولقد سبق لهؤلاء الاشراف أن ألحوا كثيراً على أمير الكوفة الزبيرى [۲۱۰] لضرب جماعة التوابين قبل أن يقوى أمرهم ويشتد خطرهم. ولكنه لم يتأثر لضغوطهم أو ينساق مع مصالحه السياسية - باعتباره ممثلاً لابن الزبير - المتعارضة مع آمال التوابين وتطلعاتهم. وللحقيقة، فان أمير الكوفة تصرف بموضوعية واخلاص فى معالجة مسألة التوابين، وقد ظهر ذلك فى جوابه للزمرة من الاشراف: «الله بيننا وبينهم! ان هم قاتلونا قاتلناهم، وان تركونا لم نطلبهم» [۲۱۱] لِمَ الخوف من التوابين.. أهو الذى قتل الحسين؟ [۲۱۲] على حد تعبيره.. فهو لم يتردد من لعن قاتله أمام الاشراف وبعضهم اشترك فى الجريمة. وفى نفس الوقت جاهر برأيه فى خطبة له فى مسجد الكوفة.. «لقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه، فان هؤلاء القوم - ويقصد التوابين - آمنون، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا الى من قاتل الحسين فقد أقبل اليهم وأنا لهم على قاتله ظهير» [۲۱۳] .لم يكن هناك اذا تضارب بين أمير الكوفة وبين أمير

التوابين، او تنافس بينهما على السلطة. فحركة هذا الاخير [صفحه ۱۳۲] وضحت هويتها وتبلورت أهدافها.. وهى فى شتى الاحوال تخدم مصالح أمير الكوفة وسيده خليفة الحجاز، فهى كحركة ثورية موجهة ضد النظام الاموى - العدو الرئيسى والمشترك للحزبين الشيعى والزبيرى - تؤدى بالنتيجة الى استنزاف طاقات الامويين وتؤخر استعداداتهم الحربية لاسترجاع العراق، ومن ثم الحزب الزبيرى فى عرينه. هذا المنطق يمكن تفسيره كأساس للعلاقات بين الحزبين التى سبقت ورافقت تحرك التوابين، وهو ما اعتمده بعض المؤرخين [۲۱۴] فى تصويره للموقف فى الكوفة عشية التحرك.وقد يحتوى هذا المؤشر بعض المبالغة، وقد يكون ناتجاً عن تقدير خاطئ. فاذا كان يعبر عن منطق الحزب الزبيرى واستراتيجيته، فانه ليس كذلك بالنسبة لممثل الحزب فى الكوفة، الذى كانت له نظرته المختلفة فى هذا الامر. ومن الانصاف ان لا نغفل دور هذا الرجل الذى شغله بكل مسؤولية، وهو دور الناصح بالتخلى عن هذه الحركة الانتحارية والتسلح بالصبر والتروى.. لان هدفه كان منصباً حول اجتذابهم الى الحزب الزبيرى وتشكيل جبهة قوية ضد الامويين [۲۱۵] بدل أن تتبعثر القوى، [صفحه ۱۳۳] وتنصرف الجهود فى غير مواقعها الاساسية.ولكن سليمان وجماعته، كانوا قد بلغوا نقطة اللارجوع فى القرار الحاسم الذى اتخذوه والتزموا مصيرياً بتنفيذه «لقد خرجنا لامر ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد والتسديد لاصوبه، ولا ترانا الا شاخصين» [۲۱۶] .وبعد خروج التوابين الى قبر الحسين، لم يتكاسل عبد الله بن يزيد (أمير الكوفة) عن اسداء النصيحة مرة أخرى لسليمان، محاولاً باخلاص ان يثنيه عن قراره وطالباً اليه تأخير موعد التحرك، فذلك أسلم عاقبة وأضمن نتيجة لسلامة الحركة وشريكها فى مناهضة الامويين، الحزب الزبيرى، مصوراً له ضخامة الجيش الاموى الذى بدأ يزحف حينئذ باتجاه العراق، وما يقابله من ضآلة حجم المتطوعين مؤكداً من جديد على ضرورة توحيد الجهود وتكاتف الايدى للوقوف فى وجه عدو قوى وعنيد. فقد كتب الى سليمان قائلاً: «أما بعد فان كتابى لكم كتاب ناصح مشفق، تريدون المسير بالعدد اليسير الى الجمع الكثير والجيش الكبير. وقد علمتم انه من أراد أن يقلع الجبال من أماكنها تكل معاوله ولا تظفر بحاجته. فيا قومنا لا تطمعوا عدوكم فى أهل بلدكم فانكم خيار قومكم، ومتى ظفر بكم عدوكم طمع فى غيركم من أهل [صفحه ۱۳۴] مصركم وهلاكم ومن خلفكم. يا قومنا انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم او يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا اذا أبداً، فارجعوا واجعلوا أيدينا وأيديكم اليوم واحدة على عدونا وعدوكم، فانه متى اجتمعت كلمتنا ثقلنا على عدونا فلا تستعيبوا نصحى ولا تخالفوا أمرى، واقبلوا حين تقرأون كتابى هذا أقبل بكم الى طاعته وادبر بكم عن معصيته والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [۲۱۷] .ان أحداً لا يستطيع أن يرتاب فى موقف أمير الكوفة الزبيرى نحو التوابين او يشكك فى مدى اخلاصه حين دعاهم الى التريث والتراجع، حتى ان سليمان نفسه لم يجد فى نصيحة الامير الا الصدق والاخلاص. ولكن المسألة خرجت عن حدود النصيحة وتعدت اطار المنطق، فالتوابون حينئذ كانوا اشبه بمركبة أفلت زمامها وانجرفت فى الوادى السحيق، الى درجة استحال معها أن تتوقف او تخفف بعض اندفاعها.. فقد كانوا معبئين لسنوات خمس مضت بشحنات متراكمة من العواطف السخية، بحيث انها خلقت منهم شخصيات مغامرة تطبعت بروح الفداء واستهوتها التضحية. وفى كل الحالات كان [صفحه ۱۳۵] منطق واحد يوجه تحركاتهم، بدون ضابط، هو منطق العاطفة الجامحة، بما فيه من مثالية وتجرد واندفاع. وكان من الطبيعى ان يتعارض منطقهم هذا مع منطق أمير الكوفة، وان تكون صرخة هذا الاخير فى غير محلها ولا تلاقى من يصغى اليها فى صفوف التوابين [۲۱۸] فقد اعتمدت منطق العقل فى تصوير الموقف السياسى فى الكوفة وفى تجسيد الخطر الذى يتهددها على يد الامويين اذا ما استمرت جبهتها فى التمزق وقواها فى التبعثر.أنهى سليمان قراءة الكتاب الذى وصله من أمير الكوفة بتنهيدة رافقها هذا البيت من الشعر:أرى لك شكلاً غير شكلى فأقصرى عن اللوم اذ بُدِّلتِ واختلف الشكل [۲۱۹] .وهو لا شك يعبّر بصدق عن التناقض فى المواقف والاهداف بين كل من التوابين وبين ممثل ابن الزبير فى الكوفة.. فلم يكن هناك - أى رابط مبدئى يربطهم بهذا الاخير، أو يدفعهم الى التعاون معه «انا وهؤلاء مختلفون... ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير الا ضلالاً، [صفحه ۱۳۶] وأنّا ان نحن ظهرنا رددنا هذا الامر الى أهله، وان أصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا» [۲۲۰] .ولعل من المفيد ان نعود قليلاً الى الوراء، لنتلمس انعكاسات الحركة التوابية على الوضع العام فى الكوفة، منذ أن خرجت من سريتها الحذرة الى العلنية الجريئة، وأخذ قادتها يصعّدون الموقف بخطبهم

الملتهبة بعد موت يزيد بن معاوية. فقد اندفعت الجماهير الى قصر الامارة وأطاحت بالامير الاموى ونصّبت مكانه أميراً آخراً يدين بالولاء للحزب الزبيرى. وفى الحقيقة كان فضل التوابين ظاهراً فى تهيئة الظروف أمام هذا الحزب لاستلام السلطة، وكان من الممكن لاى حركة سياسية، اضطلعت بهذا الدول، ان تتحول الى شريك رئيسى فى الحكم الزبيرى حينئذ. ولكن حركة التوابين، كما عرفنا، كانت لها همومها البعيدة كل البعد عن استلام الحكم أو المشاركة فيه، او حتى المباركة فى أدنى الاحتمالات. لذلك كان تعاملهم مع نظام ابن الزبير تعاملاً محدوداً، وفى نطاق ما يوفره لهم من حرية التحرك وعدم اثارة المشاكل التى يمكن ان تعيقهم عن تحقيق ما التزموه بتنفيذه وما أخذوه على أنفسهم من ميثاق. [صفحه ۱۳۷] وانطلاقاً من هذا المبدأ رفض سليمان دعوة أمير الكوفة الى التراجع برغم ما فيها من اخلاص وتودد. وكان قد وصل الى مكان يقال له (هيت) [۲۲۱] ومن هناك أجابه برسالة لا تخلو من استحسان ظاهر لموقفه المسؤول وسلامة نواياه: «أما بعد فقد قرأنا كتابك أيها الامير، وفهمنا ما نويت، فنعم أخو العشيرة أنت ما علمناك فى المشهد بالمغيب، غير انّا سمعنا الله تعالى يقول فى كتابه وقوله الحق (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به فذلك هو الفوز العظيم) [۲۲۲] وأعلمك أيها الامير ان القوم قد استبشروا ببيعهم الذى بايعوه وقد تابوا اليه من عظيم ذنوبهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [۲۲۳] .أدرك أمير الكوفة عبث ندائه الى التوابين بالتراجع، وتأكد له أن القوم سائرون الى أقدارهم بعزيمة ثابتة لملاقاة [صفحه ۱۳۸] موتهم البطولى. فالتفت الى الحاضرين فى ديوانه مردداً وكأنه يسّر الى نفسه: «استمات القوم ورب الكعبة، وأول خبر يأتيكم عنهم بأنهم قتلوا بأجمعهم والله لا قُتلوا حتى يكثر القتل بينهم وبين عدوهم» [۲۲۴] .فرغت الكوفة حينئذ من زعماء التوابين الذين غادروها وهم فى ذروة الحماسة الى (النخيلة)، المعسكر الذى هرع اليه رفاق آخرون، اشتركوا معهم فى تلك المسيرة النضالية الرائعة، لخوض معركة الانتقام البطولى ضد النظام الاموى ولضرب ما عبروا عنه بقواعد الطغيان والظلم. وكانت بعض العناصر الشيعية التى استهوتها حركة سليمان قد أخذت بدورها تغادر الكوفة تباعاً وتلتحق بمركز التجمع فى (النخيلة)، دونما التزام، أحياناً، بمواقف قبائلها التى لم تقتنع زعاماتها بدعوة سليمان ووجدت فيها مجرد مغامرة انتحارية لا هدف منها سوى تبديد الجهود وهدر الطاقات دون أى نتيجة ايجابية على صعيد حركة النضال الشيعى. وهذه الظاهرة كانت من أبرز سمات الجيش الذى خاض به التوابون معركة [صفحه ۱۳۹] التكفير عن الذنب فى (عين الوردة). فقد كان الانفلات من نظام القبيلة كوحدة قتالية أمراً مألوفاً الى حد كبير، على خلاف ما عرفه التقليد العربى بصفة عامة فى ميادين الحرب. وكان لهذا الواقع مدلولاً آخراً، هو أن نفراً قليلاً فقط من جمهور الشيعة الكوفيين خرج الى (النخيلة) اما الغالبية، فقد التزم بعضها بقرار القبيلة فى معارضة الحركة، وبعض آخر ظل على تردده يترقب انجلاء الامور. اما الاشراف فقد كانوا أكثر الفئات ابتهاجاً بخروج التوابين حيث انزاح عنهم كابوس ظل لفترة يؤرق مضاجعهم، ويفقدهم نعمة الاستقرار. وثمة شخص آخر فى الكوفة، لم يكن أقل شعوراً بالفرح من الاشراف هو المختار الثقفى، وكان لا يزال فى السجن ينظر من وراء قضبانه فيجد الساحة الشيعية خالية من منافسيه، فاذا به المستفيد الاكبر من غياب التوابين. وبسرعة عاد الى تحركه وأخذ يصعّد نشاطه فى أوساط الحزب الشيعى، حتى أصبح بعد قليل من الوقت زعيم هذا الحزب غير المنافس، والى حين زعيم الكوفة بأسرها. [صفحه ۱۴۰]

التقدم نحو الشام

بعد يوم وليلة من الابتهالات والتضرع حول قبر الحسين [۲۲۵] مستغفرين الله وطالبين اليه أن يمنحهم نعمة الشهادة، غادر التوابون كربلاء عبر الفرات الى الانبار ومنها الى القيارة وهيت. ومن هذه الاخيرة كتب سليمان بن صُرد الى أمير الكوفة عبد الله بن يزيد جواباً على رسالته كما سبق ان أشرنا. ولقد تجنب التوابون كما هو واضح السير عبر الصحراء، واتخذوا طريق الجزيرة. ولعل غايتهم من وراء ذلك كانت تزويد جيشهم بقوات اضافية من الجزيرة وبلاد الشام، حيث كانت تتواجد المعارضة القيسية بزعامة الكلابيين أصحاب

قرقيسيا [۲۲۶] خاصة وأن بعض العناصر التوابية تراجعت الى الكوفة [۲۲۷] . [صفحه ۱۴۱] بعد أن فتر حماسها وأدركها الخوف عند تواتر الاخبار عن جيش كبير للامويين زاحف من دمشق، فآثرت السلامة والعودة. ويبدو ان عددها كان محدوداً فلم يؤثر على الخطة العامة للتوابين. ولكن هذا لم يمنع حاجة هؤلاء الملحّة الى المساعدات المادية والعسكرية لمجابهة نظام راسخ فى دمشق وجيوش على مستوى رفيع من التنظيم. ولهذا جرت اتصالات بين سليمان بن صُرد وبين زفر بن الحارث الكلابى صاحب قرقيسيا عند اقتراب التوابين من أبواب المدينة وكان المسيّب بن نجبه، نائب سليمان والرجل القوى [۲۲۸] فى الحركة رسول سيده الى الامير الكلابى [۲۲۹] وكان هذا الاخير قد أمر باغلاق المدينة تحسباً للظروف، فلما قابله المسيّب وعرّفه بنفسه وشرح له أبعاد تحركهم هذا، أبدى تعاطفاً ملحوظاً معهم واستعداداً للتجاوب مع ما يطلبونه من مساعدات، دون أن ينسى تسويغ موقفه باغلاق الابواب فى وجههم: «انا لم نغلق ابواب هذه المدينة الا لنعلم ايانا تريدون ام غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة» [۲۳۰] . [صفحه ۱۴۲] خرج موكب التوابين من قرقيسيا مزوداً بما يلزمه من احتياجات اقتصرت على بعض المواد الغذائية، لان زفر رغم تعاطفه معهم، ورغم عداوته الشرسة للامويين [۲۳۱] ، لم يمدهم بالمتطوعين ربما لانه وجد فى حركتهم من المغامرة والتهور، ما يجعل أى فرصة للنجاح معها مستحيلة، او ربما لخروجه منذ أمد غير بعيد من حرب مدمرة مع الامويين فى مرج راهط. ولهذا لم يرد استنفاذ طاقاته مرة أخرى بدون جدوى.وفى اثناء ذلك، وفى الوقت الذى كان يواكب فيه الزعيم الكلابى جماعة التوابين خارج المدينة [۲۳۲] حملت اليه استخباراته معلومات غير سارة عن وجود عبيد الله بن زياد فى (الرقّه) على رأس جيش ضخم وبصحبته خمسة من كبار قادة الامويين وأشد أعداء الحزب الشيعى ضراوة وهم: الحصين بن نمير السكونى، شرحبيل بن ذى الكلاع الحميرى، أدهم بن محرز الباهلى، ربيعه بن مخارق الغنوى، جبله بن عبد الله الخثعمى [۲۳۳] . [صفحه ۱۴۳] تهيّب زفر الموقف الخطير، وخاف على ضيوفه المتهالكين على الشهادة، والمتدافعين لقتال عدو ليسوا فى حجمه. فأخذ يلحّ عليهم بالتروى والرجوع الى قرقيسيا والعمل على تشكيل جبهة واحدة ضد المروانيين من بنى أمية [۲۳۴] «ان شئتم دخلتم مدينتنا وكانت أيدينا واحدة، فاذا جاء هذا العدو قاتلناهم جميعاً» [۲۳۵] ولكن هذه المعلومات عن الجيش الاموى الضخم لم تستثر التوابين الذين أصروا على متابعة المسيرة، ورفضوا نصيحة زفر، كما رفضوا من قبل نصيحة أمير الكوفة عبد الله بن يزيد. فقد رد سليمان على الامير الكلابى قائلًا: «قد أرادنا أهل مصرنا على مثل ما أردتنا عليه وذكروا الذى ذكرت، وكتبوا الينا بعدما فصلنا، فلم يوافقنا ذلك فلسنا فاعلين» [۲۳۶] .ولابد هنا لاى متتبع لاخبار حركة التوابين، الا ان يستوقفه ذلك الصمود الرائع لهذه الحركة العظيمة، ولا بد ان تنتزع اعجابه تلك الشخصيات القيادية المرتفعة، [صفحه ۱۴۴] بايمانها المثالى، ونضالها الاسطورى الفريد. انها شخصيات من طراز جديد ومن معدن آخر لا- نجد لها مثيلًا الا فى كتب الاساطير. شخصيات اتقنت جيداً صناعة الموت، وتعدت قوانين الشهادة المعروفة، لتكتب بدمائها شرائع جديدة، ليست لدنياها وانما للتاريخ. أليس مثيراً أن تقوم حركة أساسها المغامرة وعنوانها الفداء، فتمر عليها سنوات خمس - أكثرها كمنظمة سرية تعمل فى الخفاء - دون أن يخبو بريقها أو تفقد شيئاً من حماسها المتأجج، حتى فى المواجهة المباشرة مع الموت؟.غير أن رفض سليمان لرغبة زفر بالانكفاء الى قرقيسيا والتحصن فيها ضد الاموين، واصراره على التقدم لاكمال المهمة التى التزم بها مع رفاقه فى مسيرتهم التكفيرية، لم يحولا دون متابعة الامير الكلابى تحذيراته للتوابين من الخطر الداهم الذى يتهددهم، وتقديم نصائحه وخبراته بكل اخلاص لهم.. وهى توجيهات على جانب من الاهمية، خاصة ما يتعلق بجغرافية المنطقة واستراتيجيتها ومواقع الماء فيها.. وكان آخر ما توجه به زفر للتوابين بعد أن أدرك عقم محاولاته فى حملهم على التراجع: «انى للقوم (أى الامويين) عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأنا لكم وادّ أحب أن يحوطكم الله بالعافية». [صفحه ۱۴۵] ان القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم الى عين الوردة [۲۳۷] فاجعلوا المدينة فى ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة فى أيديكم وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه. فاطووا المنازل فوالله ما رأيت جماعة قط أكرم منكم، فأنى أرجو أن تسبقوهم، وان قاتلتموهم فلا تقاتلوهم فى فضاء ترامونهم وتطاعنوهم فانهم أكثر منكم ولا- آمن أن يحيطوا بكم فلا- تقفوا اليهم فيصرعوكم ولا- تصغوا اليهم فانى لا أرى معكم رجالة ومعهم الرجالة والفرسان وبعضهم

یحمی بعضاً، ولکن ألقوهم فی الکتائب والمقانب ثم بثوها فیما بین میمنتهم ومیسرتهم واجعلوا مع کل کتیبة أخری الی جانبها، فان حُمل علی احدی الکتیبتین رحلت الاخری فنفست عنها. ومتی شاءت کتیبة ارتفعت ومتی شاءت کتیبة انحطت، ولو کنتم صفاً واحداً فزحفت الیکم الرجالة فدفعتم عن الصف انتفض وکانت الهزیمة» [۲۳۸] .

معرکة عین الوردة

تقدم سلیمان مع رفاقه فی عمق الجزیرة، ونصائح الامیر الکلابی لازالت تتردد فی أسماعه. فهذا الرجل (زفر) خبر المنطقة جیداً وأکسبته الحرب مهارة عسکریة وتجربة واسعة، فضلاً عما أظهره من تودد ظاهر وتعاطف ملموس ازاء التوابین وقضیتهم. لقد کان لکلماته وقعها المؤثر فی نفوس هؤلاء الذین استجابوا لنصیحته وساروا فی اتجاه عین الوردة حسب الخطة التی رسمها لهم، حتی اذا وصلوها واستراحوا قلیلاً [۲۳۹] من مشاق الطریق أخذ سلیمان فی تنظیم المقاتلین ووضع خطط الاشتباک مع الجیش الاموی الذی أخذ یقترب من المعسکر. وکانت أهم معالم التکتیک الذی اتبعته القیادة، تقسیم المقاتلین الی مجموعات صغیرة [۲۴۰] مهمتها القیام بهجمات صاعقة علی طلائع وأطراف الجیش الاموی، للتأثیر علی العناصر المقاتلة فیه. [صفحه ۱۴۷] وبعد أن استکمل سلیمان هذه الترتیبات العامة. وقف بین رفاقه خطیباً، لیضعهم نفسیاً فی أجواء المعرکة التی دنت ساعتها. وکانت بمثابة تحلیل لفکرة الخروج والغایة الاساسیة التی انطلقوا فی سبیلها وهی التوبة والغفران [۲۴۱] ، وتوضیح لمفهوم الحرب مستقی من تشریع علی، الامام ورأس الحزب الشیعی، الذی وضع مفاهیمه المثالیة الاولی. کما أشار فیها الی موضوع القیادة وانتقالها - اذا أصیب - الی نائبه المسیّب ومنه الی عبد الله بن سعد فعبد الله بن وال حتی آخر الخمسة القیادیین، رفاعة بن شداد [۲۴۲] وأخیراً فان هذه الخطبة کانت انعکاساً صادقاً لاخلاقیة القیادة التوابیة، المترفعة والمتمسکة بالمثل العلیا حتی فی ساحات القتال: «... فقد أتاکم الله بعدوکم الذی دأبتم فی المسیر الیه آناء اللیل والنهار تریدون فیما تظهرون التوبة النصوح ولقاء الله معذرین. فقد جاءوکم بل جئتموهم انتم فی دارهم وحیزهم. فاذا ألقیتموهم فاصدقوهم واصبروا ان الله مع الصابرین... لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا علی جریح ولا تقتلوا أسیراً من أهل دعوتکم الا ان یقاتلکم بعد أن تأسروه أو یکون من قتلة اخواننا بالطّف [۲۴۳] رحمة الله [صفحه ۱۴۸] علیهم، فان هذه کانت سیرة أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب فی أهل الدعوة...» [۲۴۴] .وفی هذا الوقت کانت طلائع الجیش الضخم الذی أعده مروان بن الحکم تشق طریقها نحو قرقیسیا بقیادة عبید الله بن زیاد. وکانت مهمة هذا الجیش تصفیة جیوب المعارضة فی العراق والمشرق ضد النظام الاموی الذی انتقلت فیه السیادة الی المروانیین، وانتقل معها ولاء ابن زیاد الذی ظل خادماً أمیناً ومخلصاً لهذا النظام، مستعداً لتنفیذ أصعب المهمات فی سبیله، بمقدار حرصه علی استمراریة مصالحه الخاصة. وقد ساعدت خبرة هذا القائد الطویلة فی شؤون العراق، علی أن یکون الرجل الاکثر جدارة للقیام بهذه المهمة التی کان سائراً الی تنفیذها بملء الثقة. ولکنها ثقة کانت فی غیر محلها هذه المرة، فالتغییرات السیاسیة والعسکریة التی شهدتها الارض العراقیة حینئذ فاقت تصوراته، وفاته أن هذه المهمة کانت آخر مهامه فی خدمة النظام الاموی، بسقوطه صریعاً علی نفس الارض التی کانت لفترة مسرح عملیاته الدمویة الرهیبة. [صفحه ۱۴۹] وفی الطریق الی العراق تسربت معلومات الی الجیش الاموی عن تحرکات التوابین باتجاه (عین الوردة) فحوّل ابن زیاد خط سیره نحو تجمعاتهم لیکونوا أول فریسة له. ولکن تطورات جدیدة حدثت فی دمشق حینذاک، کان یمکن ان تؤدی الی ارتباک فی هذا الجیش، حین تناقلت الاخبار موت الخلیفة مروان وتعیین ابنه عبد الملک [۲۴۵] ، الا ان ذلک لم یترک أی انعکاس فی صفوف الجند، أو یحدث أی تعدیل فی خطط الحملة، ذلک أن الخلیفة الجدید سارع الی تأکید أوامر الخلافة باستئناف المهمة التی أوکلت الی هذه الحملة واقرار قائدها فی منصبه. وبدوره کان ابن زیاد اکثر تجاوباً مع سیده فأرسل الیه بیعته بالخلافة ومعه جمیع عناصر الجند فی الحملة.لم یکن سوی أیام لحسم الموقف الذی أخذ فی التأزم، کلما اقترب الجیش الاموی من معسکر التوابین فی (عین الوردة)، حیث کان ترقب مثیر من جانب هؤلاء الذین وجدوا فی اعدائهم تفوقاً عددیاً ظاهراً وامکانیات عسکریة مذهلة، بالمقارنة مع جنودهم القلائل وامکانیاتهم

المحدودة. والواقع ان الصورة كما بدت عشية الالتحام فى [صفحه ۱۵۰] المعركة الفاصلة، غير واضحة تماماً. فهناك قوى غير متكافئة ستخوض حرباً هى بالنتيجة غير متكافئة. فالتوابون كما أشرنا قبلاً، لم يطرأ على وضعهم العسكرى أى تحسن، وانما افتقدوا بعض العناصر القتالية، فانخفض عددهم الى ما يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل بقليل. وعلى العكس من ذلك كان جيش الامويين متفوقاً بصورة ملحوظة، حيث تشير بعض التقديرات الى انه جاوز العشرين الفاً [۲۴۶] وهناك تقديرات أخرى لا شك انها احتوت على كثير من المبالغة أشارت الى انه بلغ الستين ألفاً [۲۴۷] ولابد ان الرقم الاول هو الاقرب الى الحقيقة، وكانت عناصره موزعة، وفقاً للنظام الحربى التقليدى، الى خمسة ألوية: مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين. وكان على كل لواء قائد من القواد الخمسة الذين مر ذكرهم. وعقدت القيادة العامة طبعاً لامير الحملة عبيد الله بن زياد. اما التوابون فقد شكلوا خطاً واحداً للتصدى بقيادة سليمان، يعاونه عبد الله بن سعد بن نفيل على الميمنة والمسيب بن نجبه على الميسرة [۲۴۸] . [صفحه ۱۵۱] ووصل الجيش الاموى أخيراً، وما لبث أن أخذ مواقعه فى مواجهة معسكر التوابين فى (عين الوردة) وبدأت استعداداته تتم فى اطار من السرعة المتناهية لبدء عملية الالتحام فوراً، والتخلص من هؤلاء الذين عرقلوا مسيرة الجيش وأعاقوا مهمته بعض الوقت. ولكن اللقاء بين المتحاربين فى (عين الوردة) تأخر قليلاً، ولعل ذلك يعود الى ان الجنود الامويين لم يكونوا قد استكملوا ترتيباتهم العسكرية بشكل نهائى، كما يعود الى محاولات القائد الاموى مفاوضة زعيم التوابين لحمله على الاستسلام والاعتراف بخلافة عبد الملك. وقد قبل سليمان بالمحاورة مع أعدائه وقدم اليهم شروطه للقبول بعدم القتال [۲۴۹] ، لكنها كانت شروط تعجيزية وغير مقبولة أصلاً لدى الامويين فقط طلب اليهم تسليمه عبيد الله بن زياد (ابن مرجانة حسب تعبيره) وقتله الحسين، والانضمام الى صفوف شيعة آل البيت [۲۵۰] .وكان من البديهى أن يرفض القائد الاموى شروط [صفحه ۱۵۲] زعيم التوابين المستحيلة، وكان معنى ذلك ان الحرب أصبحت وشيكة الوقوع. وكانت قد وقعت فعلاً واتخذت شكل مناوشات، حقق خلالها التوابون نجاحات أولية على جانب كبير من الاهمية. فقد أرسل سليمان نائبه المسيّب بن نجبه على رأس اربعمائة فارس [۲۵۱] نحو معسكر الامويين حين علم بتحرك جيش اموى نحو (عين الوردة) بقيادة شرحبيل بن ذى الكلاع والحصين بن نمير السكونى [۲۵۲] فأوقع المسيب هزيمة قاسية بالجيش الاموى، افقدته الكثير من القتلى [۲۵۳] على الرغم من التفاوت العددى الكبير بين كل من القوتين. وهذا عائد بدون ريب من ناحية الى نجاح مخطط التوابين فى الحرب الصاعقة، ومستوى الحماس الملتهب الذى بلغ حداً كبيراً. ومن ناحية أخرى الى تفكك الجبهة الاموية واختلاف شرحبيل والحصين على القيادة العليا [۲۵۴] .وكانت هذه الهزيمة بمثابة تصعيد عنيف للموقف من [صفحه ۱۵۳] جانب الامويين الذين بادروا بارسال أحد القائدين المهزومين (الحصين بن نمير) الى (عين الوردة) ومعه اثنى عشر الفاً من الجنود حيث أصبح وجهاً لوجه مع التوابين.. وكان ذلك ايذاناً بوقوع الحرب فعلياً [۲۵۵] حين اندفع التوابون من مواقعهم بقيادة سليمان بن صُرد التحموا مع قوات الحصين الاموية التى تفوقهم كثيراً فى العدد، وذلك فى يوم الاربعاء فى الثانى والعشرين من جمادى الاولى سنة ۶۵ هجرى /۴ كانون الثانى ۶۸۵ م بعد خمسة أيام من نزولهم فى (عين الوردة) [۲۵۶] .ويظهر من سير الاشتباكات الاولية أن وضع التوابين - برغم قلتهم العددية - كان معززاً، ومعنوياتهم فى ارتفاع دائم، أما الحماس فقد بلغ حداً لا يوصف، وكانت تستثيره نداءات سليمان فى صخب المعركة فتزيده التهاباً وتأججاً: «يا شيعة آل محمد، يا من يطلبوا بدم الشهيد ابن فاطمة، ابشروا بكرامة الله عز وجل، فوالله ما بينكم ودخول الجنة والراحة من هذه الدنيا الا فراق الانفس والتوبة والوفاء بالعهد» [۲۵۷] . [صفحه ۱۵۴] «التوبة والوفاء بالعهد» تلك الصرخة التى أطلقها سليمان فى المعركة والشعار الذى طرحه التوابون منذ سنوات طويلة وقاسية، اقترن الآن بالفعل وحانت ساعة تنفيذه. لقد دخلوا حرب التكفير عن الذنب بأهداف مثالية وقلوب تطفح بالايمان، عبّروا عنها ابان المعركة بتكسير أغمدة السيوف [۲۵۸] والتقدم الى القتال بشجاعة خارقة وحماس منقطع النظير.دارت المعارك رهيبة، وبلغت فى أيامها الثلاثة التالية (وهو الوقت الذى استغرقته الحرب) مرحلة من التصعيد غير متوقعة. فعلى جبهة التوابين الدافقة بالحيوية والنشاط، كانت تحركات المقاتلين تتم فى سرعة عجيبة، والوحدات الانتحارية الصاعقة كانت تحقق نجاحات مذهلة على أطراف ومقدمات الجيش الاموى، الامر الذى أحدث ارتباكات فى صفوفه وأفقده كثيراً

من عناصره المقاتلة. ففى اليوم الاوللمعارك الجدية دار قتال ضارى بين الطرفين حسمه التوابون بهجوم عنيف على طرفى الجيش الاموى فتراجع مهزوماً، تاركاً وراءه الكثير من القتلى والجرحى [۲۵۹] وقد تركت هذه الهزيمة صدى استياء [صفحه ۱۵۵] عميق عند القائد العام عبيد الله بن زياد وأفقدته السيطرة على أعصابه، حين صب جام غضبه وقذف بشتائمه أحد قواده (شرحبيل بن ذى الكلاع) متهماً اياه بالتخاذل والتقصير [۲۶۰] .واستؤنف القتال الضارى فى اليوم الثانى. وكان وضع الجيش الاموى قد أصبح أكثر تعزيزاً، بحيث ان التوازن العسكرى اختل الى حد كبير وانعدم التكافؤ بين القوتين المتحاربتين بشكل ظاهر. غير ان الروح النضالية المغامرة التى تميزت بها أعمال التوابين، وذلك التسابق الجموح نحو الاستشهاد، نسف كل قواعد التوازن. فقد كان صمودهم بطولياً ورائعاً طوال يوم مثير، أثخن فيه الفريقان قتلاً وجراحاً [۲۶۱] ، ولم تكن نتيجته على ما يبدو حاسمة لاى منهما، حتى كان اليوم الثالث [۲۶۲] وهو الاكثر اثارة فى معارك (عين الوردة) حين أطبق الجيش الاموى بكل امكانياته على التوابين الذين اصبحوا فى قلة قليلة بعد أن أفقدتهم اشتباكات اليوم السابق جزءاً كبيراً من مقاتليهم. وقد وجدوا أنفسهم فى هذا اليوم محاطين من كل جانب بقوات مكثفة من أعدائهم، انقضّت عليهم [صفحه ۱۵۶] بمنتهى العنف والشراسة. ولكن التوابين، للحقيقة، لم يتخاذلوا ولم يتخلوا مطلقاً عن ايمانهم بالقضية التى يناضلون فى سبيلها، وانما ظلوا متماسكين فى جبهة واحدة متراصة ويقاتلون قتالاً بطولياً مستميتاً [۲۶۳] ، حتى أن هجماتهم الانتحارية أوقفت بعض الوقت الجنود الامويين عن التقدم، وجعلتهم يتحاشون الالتحام المباشر معهم، فاعتمدوا النبال كسلاح رئيسى [۲۶۴] وتمكنوا بذلك من انزال خسائر جسيمة فى صفوف التوابين، مما أدى الى سيطرتهم أخيراً على زمام الموقف.وكان سليمان ذلك الرجل الاسطورى، يتقدم رفاقه المناضلين، بخطى ثابتة نحو قدره الذى اختاره عن قناعة وايمان. وفى وسط المعمعة كان صوته يخترق الآذان مردداً: «عباد الله من أراد البكور الى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فاليّ» [۲۶۵] وكانت هذه الكلمات آخر ما ورده القائد التوابى وهو يشق بسيفه صفوف الامويين بكل جرأة ورباطة جأش. ولعله عاش فى تلك اللحظات لذة الانتقام وحلم الشهادة الذى أوشك أن [صفحه ۱۵۷] يتحقق. وحدث ذلك فعلاً عندما أدركه سهم ألقى به يزيد بن الحصين، فأوقعه قتيلاً ـ وكان له من العمر ثلاثاً وتسعين سنة [۲۶۶] ومن غرائب المصادفات ان تكون نهاية زعيم التوابين – الذى قام بثورته للانتقام من النظام الاموى عبر ممثله والمسؤول الاول عن مقتل الحسين، يزيد بن معاوية – على يد يزيد آخر هو ابن الحصين بن نمير السكونى أحد أركان هذا النظام البارزين، وكأن ذلك جاء ليوحى بأن معركة الانتقام التى يخوضها الحزب الشيعى لم تنته بعد، وستبعث من جديد، ولكن مع وجوه أخرى وبأبعاد مختلفة.بعد مقتل سليمان، تسلم راية القيادة نائبه المسيّب بن نجبه الذى أثبت انه لا يختلف عن مستوى سليمان فى جرأته المتطرفة وفى ايمانه العظيم، وقد وصفه أحد الذين شاركوا فى (عين الوردة) بقوله: «ما رأيت أشجع منه انساناً قط، ولا من العصابة التى كان فيهم، ولقد رأيته يقاتل قتالاً شديداً ما ظننت ان رجلاً واحداً يقدر أن يبلى مثل ما أبلى، ولا ـ ينكأ فى عدوه مثل ما نكأ» [۲۶۷] وقد سقط المسيّب بدوره صريعاً فى المعركة [۲۶۸] بعد جهود [صفحه ۱۵۸] مستميتة، وتبعه بقية القواد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعة بن شداد الذى اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت اليه فأصدر أوامره سراً الى البقية الباقية من التوابين بالانسحاب والتراجع. غير أن الاستجابة لم تكن جماعية، لان فئة، قدّر عددها نحو مائة وثلاثين مقاتلاً، رفضت فكرة الانسحاب، وأصرت على الاستشهاد، فظلت تقاتل حتى أبيدت بكاملها [۲۶۹] اما الباقون فقد انسحبوا تحت جنح الظلام ممتثلين لاوامر القائد العام. وكانت عملية الانسحاب مدروسة ومنظمة الى حد كبير، ذلك ان رفاعة كان قد أمر بتشكيل فرقة من سبعين فارس، مهمتها تغطية الانسحاب واشغال العدو، كما أمر بتهديم الجسور والقناطر وراء المقاتلين لاعاقة أى ملاحقة قد يقوم بها الامويون.تمت عملية التراجع بنجاح تام، وابتعد التوابون المنسحبون عن ميدان المعركة، واصبحوا فى منأى عن مطاردة الجيش الاموى المنتصر الذى استنكف عن محاولة اللحاق بهم [۲۷۰] وفى طريق العودة الى الكوفة عاودتهم ذكريات القتال فى (عين الوردة) ورجعت اليهم من جديد عقدة الشعور بالذنب، ففكروا بالرجوع والسير على خطى [صفحه ۱۵۹] رفاقهم الذين وهبهم الله نعمة الشهادة. ولكن رفاعة تمكن بعد صعوبة من اقناعهم بالتخلى عن هذه الفكرة ومتابعة الانسحاب الى

الكوفة [۲۷۱] .ولم تقتصر متاعب الانسحاب على التمرد والاصرار على الرجوع الى ساحة القتال، وانما كانت مشاق الرحلة تفوق حدود الاحتمال، وتضفى عليها مسألة الجرحى [۲۷۲] وفقدان بعضهم فى الطريق، ظلالاً مأساوية قاتمة. وقد حاول زفر بن الحارث الكلابى مواساتهم والتخفيف عنهم عند وصولهم الى (قرقيسيا)، فأرسل اليهم المواد الغذائية، والاطباء لمداواة الجرحى، عارضاً عليهم الاقامة ما شاءوا فى مدينته. فأقاموا فيها ثلاثة أيام [۲۷۳] انصرفوا بعدها متبعين نفس الطريق الذى حملهم الى (عين الوردة) حتى اذا بلغوا (هيت) تفجرت أحزانهم من جديد بلقاء اخوانهم من جماعة المدائن بقيادة سعد بن حذيفة بن اليمان، وهم فى طريقهم الى ساحة القتال [۲۷۴] ، فكان مجيئهم متأخراً وفى غير محله. ولكنهم سجلوا على أية حال موقف التضامن [صفحه ۱۶۰] السياسى والعقائدى مع رفاقهم التوابين من أجل الغفران والتكفير عن الذنب. كان اللقاء حزيناً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، لم يخفف بعض حدته الا افتراقهم، عائدين كل الى مدينته، وقد غمره أسى عميق وحمل فى قلبه صورة لن تنسى من الفجيعة.تابعت فلول التوابين بعد ذلك رحلة العودة الى الكوفة، وكانت أخبار المعارك الانتحارية والبطولات الخارقة التى شهدتها (عين الوردة)، قد بلغت أسماع الكوفيين فهزتهم اعجاباً، كما أن بعضهم آلمه أن تتهاوى تلك النخبة من الحزب الشيعى وتضيع جهودها هباء فى غمار حرب غير متكافئة. فلما بلغوا مشارف المدينة، هرع لمواساتهم جمهور من الكوفيين، كان بينهم الامير الزبيرى عبد الله بن يزيد الانصارى الذى استقبل قائدهم رفاعة معزياً ومشجعاً، ومشيداً كذلك بالدور البطولى الذى قام به التوابون فى مسيرتهم النضالية الرائعة ضد (قوى الطغيان) و(زمرة الجوار) [۲۷۵] .وفى الكوفة، اتصل بهم المختار من السجن معزياً: «ابشروا فقد قضيتم ما عليكم وبقى ما علينا، ولن يفوتنا منهم من بقى ان شاء الله» [۲۷۶] وكتب الى زعيمهم رفاعة [صفحه ۱۶۱] مبشراً بالنصر القريب، ومعاهداً على اكمال المسيرة التى بدأها سليمان ورفاقه وان كان لا يفوته ان يغمز من قناة هذا الاخير بوصفه انه ليس بالرجل الذى يمكن ان يتحقق على يديه النصر وانما هو – أى المختار – القادر على حمل راية الحزب الشيعى وتنفيذ مخططاته الثأرية وتصفية كل من شارك فى مأساة كربلاء، نظاماً كان أم اشخاصاً: «أما بعد فمرحباً بالعصبة الذين عظم الله لهم الاجر ورضى فعلهم حين قتلوا، اما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة الا كان ثواب الله أعظم من الدنيا، ان سليمان قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل روحه مع أرواح النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون، انى أنا الامير المأمور والامين المأمون وقاتل الجبارين والمنتقم من أعداء الدين المقيد من الاوتار، فأعدوا واستعدوا وابشروا. أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدم أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحلين» [۲۷۷] . [صفحه ۱۶۵]

النتائج

ان ثورة التوابين – كما رأينا – أخفقت عسكرياً، وتحطمت قوتها الاساسية فى (عين الوردة). وسبب هذا الاخفاق يعود بدون شك الى عامل رئيسى، هو الاختلال الظاهر فى توازن القوى بين الجيشين الاموى والتوابى. فبينما كان الاول، قوياً، انضباطياً ومتفوقاً بشكل بارز فى امكانياته البشرية والمادية، كان الآخر ضعيفاً، اقتصر على عدد محدود من المتطوعين، الذين توفر لهم من الحماسة والفروسية والايمان، أكثر مما توفر من التنظيم والعدد والعتاد. وهذا الواقع اعترف به سليمان قبيل المعركة عندما لاحظ هزالة جيشه وقلة امكانياته بالمقارنة مع أعدائه الامويين [۲۷۸] وقد أدى هذا الوضع المتباين لدى كل من الفريقين، الى حسم الموقف بسرعة وانهاء المعركة خلال أيام ثلاثة رغم الجهود البطولية التى بذلها التوابون فى ساحة القتال [۲۷۹] . [صفحه ۱۶۶] وعلى الرغم من أن المنطلقات الاولى للحركة التوابية جاءت منسجمة مع ما آلت اليه من نتائج فان التقويم الموضوعى لها هو أبعد من حدود الارتجال والتهور، كما فى أذهان بعض المؤرخين. فقد ولدت حركة التوابين فى الظلام تحت واقع التكفير عن الذنب الذى أوجده مصرع الحسين فى كربلاء، وعاشت كمنظمة سرية تعمل فى الخفاء – طوال خلافة يزيد بن معاوية – لتكوين قاعدتها الشعبية فى الكوفة، وتحاول ان تستفيد من الظروف التى تمخضت عن وفاة هذا الاخير بخروجها من الاطار السرى واعلانها الثورة على النظام الاموى المسؤول المباشر عن مقتل

الحسين.ومع اعترافنا بأن حركة التوابين كانت مجرد حركة تكفيرية التزمت بهدف أساسى هو التوبة، وبأنها كحركة سياسية لم تتضمن أى برنامج اصلاحى سياسياً كان أم اجتماعياً، فلابد لنا أن نعترف ايضاً بأنها كانت حركة منظمة ومدروسة، دأبت بصورة جدية على استقطاب الحزب الشيعى بكل فصائله وتعبئته لخوض معركة الانتقام للحسين. ولكن التمزق الذى أصاب هذا الحزب، بسبب تردد بعض عناصره، واستنكاف البعض الآخر عن المشاركة وانتقاده زعامة الحركة التى لم تضع امامها مخطط الاستيلاء [صفحه ۱۶۷] على السلطة، فضلاً عن ظهور المختار فى الكوفة فى وقت شارفت فيه هذه الحركة على النضج، فكان لظهوره الاثر الكبير فى ارتداد الكثيرين عنها واستمالتهم الى دعوته الاكثر واقعية بمضمونها السياسى والاجتماعى.ان كل هذه الامور أدت فى النهاية الى نتيجة حتمية وهى الاخفاق العسكرى المدمر للحركة التوابية، وان كان ينبغى أن نكون حذرين عند استعمالنا صيغة الاخفاق أو الفشل، لان الهزيمة العسكرية لم تكن مفاجئة او غير متوقعة بالنسبة للتوابين، وانما كان هؤلاء يعرفون سلفاً النتائج المترتبة على تحركهم والتى حذرهم منها أكثر من محذر. لذلك توجهوا الى المعركة وهم يشعرون فى قرارة أنفسهم انهم متجهين الى نهايتهم المحتومة بكل قناعة وبكل ادراك واقعى للظروف، فحققوا بذلك أهدافهم المرسومة، وكان لهم من النتائج ما أرادوا.والحقيقة ان أى تقويم موضوعى لحركة التوابين، ينبغى ان لا يبتعد عن المفهوم العام الذى انطلقت منه، وهو الشعور بالذنب ومحاولة التكفير عنه، ذلك الشعور الذى جمع عناصرها القيادية والمتطوعة فى تنظيم سرى، تحول بعد فترة الى حركة انتحارية، هدفها الاول الانتقام [صفحه ۱۶۸] للحسين او الموت فى سبيله [۲۸۰] ومن خلال هذا المفهوم نستطيع القول أن فشل الحركة العسكرى لا يعنى بالضرورة انها فشلت على الصعيد السياسى، ولا يعتبر مبالغة بأية حال اذا اعتبرناها حركة سياسية ناجحة، نفذت خطة موضوعة سلفاً، وقامت بتأدية مهمتها الانتقامية على أكمل وجه. وأخيراً فان أبرز ما حققته الحركة التوابية من نتائج، انها سجلت بعض الايجابيات على صعيد حركة النضال الشيعى، وانعكست تأثيراتها بصورة خاصة على المجتمع الكوفى، فعبأت جماهيره بالثورة، وعمقت فى نفوسهم الكراهية والحقد ضد النظام الاموى، الامر الذى جعل من الكوفة فيما بعد مسرح التحرك الدائم للحزب الشيعى وثوراته المتلاحقة، المناهضة للنظام.والواقع ان الشيعة فى الكوفة ظلوا يمارسون النقد الذاتى ازاء موقفهم من الحسين بعد عودة بقايا التوابين من (عين الوردة)، واستمر التعبير عن الندامة والشعور بالاثم يمارس عبر نشاطات وتحركات مختلفة.ولكن غياب عدد من الشخصيات القيادية فى الحزب الشيعى أدى الى فراغ فى الزعامة القادرة على تسجيل مواقف سياسية ذات أهمية. حتى رفاعة بن شداد القائد [صفحه ۱۶۹] التوابى المنسحب، لم يكن بمقدوره، وهو المتقدم فى السن والمهزوم عسكرياً، أن يتزعم الحزب الشيعى المفكك حينئذ. فهناك فراغ فى الزعامة، واختلاف فى آراء القادة حول موقف الحزب من التطورات السياسية الجديدة، وهناك تململ فى أوساط القاعدة الجماهيرية التى لا تزال تتفجر بالنقمة وتقوم بضغوط على القيادة من اجل استئناف التحرك واتخاذ قرارات أكثر جدية.وكانت هذه الظروف فرصة نادرة امام الزعيم الشيعى المعتقل آنذاك فى سجن الكوفة، المختار الثقفى. فراقبها باهتمام كبير، وكتب الى صهره عبد الله بن عمر موسطاً اياه من جديد لدى عبد الله بن يزيد أمير الكوفة [۲۸۱] من أجل الافراج عنه. وقد تم له ذلك لقاء عهود قطعها لهذا الاخير [۲۸۲] بعدم اثارة المتاعب وتجميد نشاطاته السياسية. ولكن المختار لم يكن بأية حال ذلك الرجل الذى يلتزم بعهود من هذا النوع وهو المحنك والسياسى الطموح، وانما سخر منها، وعجب لسذاجة الذين اعتقدوا انه سيحافظ عليها حيث قال: «ما أحمقهم حين يرون انى أفى لهم بايمانهم هذه، أما حلفى لهم بالله فانه ينبغى لى [صفحه ۱۷۰] اذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتى الذى هو خير وأكفّر يمينى، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم» [۲۸۳] .وتشاء الصدف أن يتحلل المختار تلقائياً من عهوده مع عبد الله بن يزيد، حين غادر هذا الاخير قصر الامارة معزولاً بقرار من سيده ابن الزبير اذ وجد فيه ضعفاً لا يتناسب مع خطورة المرحلة وعيّن مكانه أحد أشد مؤيديه حماسة هو عبد الله بن مطيع القرشى [۲۸۴] الذى لم يكن بينه وبين المختار شيئاً من المواثيق.وهكذا خرج المختار من سجنه، ليجد نفسه فى مواجهة أحداث مصيرية وخطيرة، فكان عليه أن يتحرك فوراً وأن لا يتردد فى اتخاذ الموقف المناسب بكل جرأة، قبل أن تقوم شرطة الوالى الجديد برصد نشاطاته واعادته من جديد الى السجن [۲۸۵] وبسرعة أعلن برنامجه

السياسى باسم محمد بن الحنفية أحد أبناء على من غير فاطمة، الذى كان يعيش فى المدينة، حيث زعم انه اتفق سراً مع هذا الاخير على الدعوة له فى الكوفة. وكان على [صفحه ۱۷۱] المختار أن يقنع الكوفيين بصحة زعمه، لان فريقاً كبيراً منهم شككك فى هذا الامر، وانتدب وفداً ذهب لمقابلة الزعيم العلوى من أجل الوقوف على حقيقة ما يزعمه المختار. ورغم ان ابن الحنفية لم يعط جواباً حاسماً، وذلك لاعتبارات متعددة أهمها، موقعه فى الدعوة العلوية ثم تخوفه من ابن الزبير، سيد الحجاز، الذى وضع ابن الحنفية تحت مراقبة أجهزته المشددة.ولكن الزعيم العلوى على ما يبدو لم يمانع فى مباركة ما يقوم به المختار واستناده فى دعوته على العلويين اذ قال للوفد الكوفى: «انا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه» [۲۸۶] .ومن المرجح أن المختار، قبل خروجه من الحجاز او بعده، كان قد اتصل بعلى بن الحسين وباحثه بأمر الدعوة له فى العراق ولكنه لم يلق استجابة، فانصرف عنه الى محمد بن الحنفية [۲۸۷] وسواء قابل المختار الزعيمين العلويين، أم أنه زعم ذلك ليعطى تسويغاً أقوى لدعوته وبعداً أكثر من مجرد الثأر للحسين والتكفير عن الذنب، [صفحه ۱۷۲] فان موقف ابن الحنفية من المختار – رغم عدم وضوحه – انعكس على الوضع العام فى الكوفة حيث شهد الحزب الشيعى تحولاً ـ نحو ابن الحنفية الذى لم يكن مطروحاً حتى ذلك الحين كامام للدعوة العلوية، وأدى الى نجاح المختار فى فرض نفسه على الحزب وتسلم زعامته.ولقد التف حول المختار بعد خروجه من السجن، نفر من الزعماء الشيعيين الذين وجدوا فيه الشخصية القيادية الصالحة لمتابعة التحرك. وكان من أبرز هؤلاء: رفاعة بن شداد، ويزيد بن انس، وأحمد بن شميط، وعبد الله بن شداد الجشمى، والسائب بن مالك الاشعرى. وقد نشط هؤلاء وقاموا بحملات دعائية فى أسواق الكوفة وأحيائها لحمل الناس على تأييد المختار والبيعة له [۲۸۸] ولكن عقبات عدة جابهت المختار، وأخرت قليلاً سيطرته على الوضع فى الكوفة فكان لا بد له من معالجتها بالسرعة الممكنة. ومن هذه العقبات مثلاً، موقف حزب الاشراف منه الذى لم يقل عدائية عن موقفه السابق من التوابين [۲۸۹] ، ومنها ايضاً تردد ابراهيم بن الاشتر النخعى أحد كبار الشيعة فى الكوفة، فى الانضمام الى جانب [صفحه ۱۷۳] المختار. وكان ابراهيم – كأبيه الاشتر – شديد الاخلاص فى ولائه لعلى وأبنائه، ومتطرفاً الى أبعد حدود التطرف فى عدائه للامويين، ولكن مع نظرة خاصة للامور ورؤية مختلفة تماماً عن غيره من زعماء الحزب الشيعى، فهو لم يشترك مثلاً ـ فى ثورة التوابين، ووقف موقف الحذر من المختار، لان التحرك الشيعى كان برأيه حينئذ، تحركاً انفعالياً يفتقر الى خطط منظمة واستعدادات طويلة وأهداف واضحة.ولعل ابراهيم كان يطمح الى أن يقود بنفسه الحزب الشيعى فى العراق، خاصة وانه كان على اتصال دائم مع زعماء البيت العلوى ومنهم محمد بن الحنفية نفسه [۲۹۰] ، وهذا ما دعاه الى التشكيك بمزاعم المختار. غير أن هذا الاخير تمكن بعد الحاح من اقناع ابراهيم بالاعتراف بدعوته والبيعة له. ويبدو ان الموافقة على ذلك كانت بايحاء من زعيم الدعوة محمد بن الحنفية الذى كتب الى ابراهيم بهذا الشأن [۲۹۱] .والواقع ان المختار كسب حليفاً قوياً بانضمام ابن الاشتر اليه، الذى ما لبث ان صار من ألمع رجالات الثورة [صفحه ۱۷۴] وقائدها العسكرى الاول، وأصبح يحضر بانتظام الاجتماعات السرية فى بيت المختار لتحضير الانقلاب ضد الحكم الزبيرى فى الكوفة [۲۹۲] ، واتخاذ قرار بتحديد ساعة الخروج حيث اتفق على أن تكون ليلة الخميس فى الرابع عشر من ربيع الاول سنة ست وستين هجرى [۲۹۳] .وفى تلك الاثناء كانت التقارير ترد على عبد الله بن مطيع – والى الكوفة – من قائد شرطته [۲۹۴] ، محذرة من انقلاب قريب يعده المختار [۲۹۵] فبعث حينذاك ابن مطيع رجاله فى أحياء مختلفة من الكوفة فى محاولة لافشال خطط المختار، ولكن ذلك لم يؤد الى أى نتيجة سوى المساهمة بتعجيل انفجار الثورة وتقديم موعدها يومين (الثلاثاء ۱۲ ربيع الاول ۶۶ هجرى). فقد حدث ان كان ابن الاشتر – ومعه مائة من المسلحين – فى طريقه ذلك اليوم الى منزل المختار أن اصطدم بصاحب الشرطة اياس بن مضارب الذى اعترض طريقه، فطعنه ابراهيم برمحه طعنة [صفحه ۱۷۵] أودت بحياته [۲۹۶] وكانت هذه الحادثة اشارة البدء بالتحرك. وبسرعة مذهلة تم استيلاء المختار وقائده ابن الاشتر على الموقف، وهُزم القائد [۲۹۷] الذى أعده الوالى وحزب الاشراف [۲۹۸] ، وما لبث ان هرب الوالى نفسه، وغادر قصر الامارة متخفياً ولجأ الى منزل ابى موسى الاشعرى [۲۹۹] .وهكذا نجحت ثورة المختار الثقفى، وتحققت معها تطلعات الحزب الشيعى لاستلام الحكم، لاول مرة منذ قيام الخلافة الاموية وتنازل الحسن لمعاوية.

وهناك عدة عوامل أسهمت بدون ريب فى انجاح هذه الثورة ومهدت لها الطريق لتصل الى السلطة دون أدنى صعوبة. ومن أبرز هذه العوامل:١ - الاعتماد بشكل أساسى على الفئات الشعبية من العرب وغيرهم الذين ضاقوا بالاضطهاد الاموى ثم الزبيرى، ووجدوا فى ثورة المختار متنفساً لتحقيق مطالبهم الاصلاحية. [صفحه ۱۷۶] ٢ - احتواء الحركة لقيادات الحزب الشيعى التى وجدت فى المختار سياسياً بارعاً ومناضلاً شديد المراس، واقتنعت به كزعيم للحزب، مفوض من قبل أحد كبار العلويين، محمد بن الحنفية.٣ - ان الحكم الزبيرى لم يقم بأى تغيير سياسى فى الكوفة ولم يكن لديه أى برنامج اصلاحى، بل كاد يكون بمناهجه استمراراً للحكم الاموى. وقد جاءت خطبة ممثله فى الكوفة حول الخراج تفجر الغضب وتشعل النقمة [٣٠٠] .۴ - ان اشراك العامل الزبيرى بعض قتلة الحسين فى الحكم وفى حرب المختار [٣٠١] ، ترك انطباعاً سيئاً فى صفوف المقاتلين معه، وأخذت مجموعات منهم تنصرف الى معسكر المختار.۵ - ان انضمام ابن الاشتر الى المختار، أدى الى ترجيح كفته وساعده على تحقيق النصر، ذلك ان تأثير ابن الاشتر كان نابعاً من قوته القبلية ومكانته البارزة فى الحزب الشيعى، فضلاً عن امكانياته الشخصية كقائد عسكرى موهوب ومغامر.هذه أهم العوامل التى أوصلت المختار الى السلطة [صفحه ۱۷۷] فى الكوفة، عبر انقلاب أبرز ما فيه انه تم دونما اسراف فى اراقة الدماء أو جنوح نحو العنف فى ملاحقة الذين تم الانقلاب عليهم. فالاشراف طلبوا الامان، فأجيبوا اليه [٣٠٢] ، والعامل الزبيرى المهزوم أخرج من مخبأه، مبعداً الى البصرة ومعه مائة ألف درهم [٣٠٣] وبذلك خضعت الكوفة بكل فئاتها - رسمياً على الاقل - للمختار الذى اعتلى المنبر فى المسجد ليعلن برنامجه السياسى والاصلاحى، وكان محوره اقامة حكم علوى يشيع العدل بين الناس ويبعث الطمأنينة فى النفوس ويتعايش مع مختلف الاحزاب. ومما جاء فيه: «تبايعونى على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم» [٣٠۴] .على أن المختار اذا كان قد استولى على السلطة بمثل هذه السهولة، فان الاحتفاظ بها وسط تلك الدائرة من الصراعات الخطيرة التى اتخذت من الارض العراقية [صفحه ۱۷۸] مسرحاً لها كان أمراً فى منتهى الصعوبة. فهناك أخطار مباشرة تتهدد نظامه الحديث، وتستهدفه مباشرة كلما اقترب الجيش الاموى - الذى فتك بالتوابين - من الكوفة. وهناك فى الطرف الآخر ابن الزبير الذى لا زال يحتفظ بسيطرته على جنوب العراق، وكان على المختار أن يتحاشى الاصطدام به، واقناعه بأن حركته ليست ضده، مع ما فى هذا الاقناع من استحالة، خاصة بعد أن مُنع الوالى الزبيرى الجديد من دخول المدينة [٣٠۵] .بالاضافة الى ذلك فان الجبهة الداخلية، لم تكن خالية من المتاعب. فالمختار وصل الى الحكم - كما هو معروف - بواسطة الحزب الشيعى وهو ليس كل الكوفة. فكان من الطبيعى أن يواجه معارضة قوية - لا سيما من الاشراف الذين بايعوا مكرهين - سببت له الكثير من المشاكل وكادت تطيح بسلطانه الحديث العهد.والواقع ان الاحداث كانت تتلاحق بصورة مثيرة ولا بد من مواجهة الموقف بجرأة وحزم. وكان وصول عبيد الله بن زياد بجيشه الاموى الى الموصل [٣٠۶] من أثقل الامور على المختار الذى بدا وكأنه يسابق الزمن فى [صفحه ۱۷۹] استعداداته العسكرية لمواجهة أشد أعدائه خصومة وأكثرهم الحاحاً. ولكى يؤخر زحف هؤلاء نحو الكوفة، أرسل المختار جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة يزيد بن انس، المريض والمسن حينئذ [٣٠٧] فاشتبك مع طلائع الجيش الاموى وتمكن بعد يومين من تحقيق انتصار غير متوقع. ولكن ذلك اقترن بوفاة القائد المنتصر فى نفس الليلة، فكان لموته تأثيراً سيئاً على معنويات الجنود الذين تهيبوا ضخامة الجيش الاموى وأخذوا فى التراجع الى الكوفة [٣٠٨] .بلغت أخبار الانسحاب، ومعها اشاعات عن هزيمة جيش المختار [٣٠٩] فأسقط فى يده، وأمر قائده ابن الاشتر بالتوجه مع سبعة آلاف مقاتل [٣١٠] للحؤول دون توغل ابن زياد فى العراق.غير أن خروج ابن الاشتر من الكوفة ترك مضاعفات خطيرة فى المدينة وزاد الموقف حراجة، حين انتفض الاشراف - وكأنهم كانوا ينتظرون خلو الكوفة من ابن الاشتر - وقد كان الحافز وراء ذلك، تضارب مصالحهم [صفحه ۱۸۰] الاقتصادية والسياسية مع وجود حكومة شيعية فى الكوفة برئاسة المختار، أبرز اهتماماتها معاقبة المسؤولين عن مقتل الحسين، وبعضهم كان من الاشراف، وانصاف الطبقات المحرومة والفئات المضطهدة لا سيما الموالى، وغير ذلك مما أثار حفيظة هؤلاء ودفعهم الى التآمر على الحكم الشيعى الذى هدد ما تمتعوا به من امتيازات خاصة فى ظل الحكومات السابقة [٣١١] .انطلق

الاشراف فی زمر مسلحة فی الکوفة وحاصروا قصر الامارة، وقد أدی ذلک الی قتال عنیف فی الشوارع خاضته الشیعة ببسالة، وصمد المختار، فلم تفقده خطورة الموقف توازنه، وقدرته الفائقة علی المناورة، حین لجأ الی المماطلة بالتفاوض مع المتمردین [۳۱۲] کسباً للوقت ریثما یصل قائده ابن الاشتر، وکان قد کتب الیه بشأن المؤامرة [۳۱۳] .عاد ابراهیم بسرعة الی الکوفة، وبعودته أتیح للحزب الشیعی - وکانت الحماسة قد بلغت به أقصی درجاتها، یزیدها اشتعالاً صرخات التوابین بقیادة رفاعة ابن شداد مرددة شعارها المعروف «یالثارات [صفحه ۱۸۱] الحسین» [۳۱۴] - أن یقضی علی تمرد الاشراف ویصفی مقاومتهم. وقد أتاح ذلک بدون شک أمام المختار فرصة الاسراع بتنفیذ قراره الانتقامی من قتلة الحسین وتتبعهم فی أنحاء العراق، فأوقع بالکثیرین منهم [۳۱۵] قتلاً ونفیاً وتعذیباً، کان بینهم عمر بن سعد وشمّر بن ذی الجوش [۳۱۶] .وبعد یومین من اخماد تمرد الاشراف، غادر ابراهیم ابن الاشتر الکوفة من جدید فی طریقه الی الموصل حیث کان یرابط بجوارها عبید الله بن زیاد مع جیشه الاموی. وعند نهر الخازر [۳۱۷] اشتبک الجیشان فی ملحمة عظیمة [۳۱۸] بذل فیها الشیعة جهوداً عظیمة للسیطرة علی زمام الموقف، وقامت فرقة انتحاریة منهم باختراق صفوف العدو، مستهدفة عبید الله بن زیاد فتمکنت من الوصول الیه وقتله. ثم قتل غیره من القواد الکبار، [صفحه ۱۸۲] الامر الذی أحدث بلبلة وفوضی وأدی الی هزیمة ساحقة للجیش الاموی [۳۱۹] .وهکذا اکتملت الصورة الانتقامیة، وغمر الارتیاح والفرح نفوس الشیعة بمقتل عبید الله بن زیاد الذی اجتز رأسه وحمل الی الکوفة لیوضع فی نفس المکان الذی وضع فیه رأس الحسین یوم کان ابن زیاد والیاً علی المدینة. وحینذاک بلغ المختار قمة مجده السیاسی، ولکنه وجد نفسه أیضاً أمام المنحدر، یتهاوی فیه بمثل السرعة التی صعد بها الی القمة. ذلک ان الانتصار الذی حققه سید الکوفة الجدید علی الامویین - أعداء ابن الزبیر - لم یخفف من حفیظة هذا الاخیر نحو المختار الذی أضر کثیراً بقضیته [۳۲۰] فبعد قلیل من الوقت، والمختار لم یفق بعد من سکرة الانتصار، فوجئ بمصعب ابن الزبیر یزحف بجیشه نحو الکوفة، وکان قد أرسل من قبل أخیه أمیراً علی البصرة سنة ۶۷ للهجرة [۳۲۱] وقد شغل الاشراف المنفیون فی البصرة دورهم البارز فی تحریض مصعب وتعجیل الحملة التی أعدها للقضاء علی المختار.وفی الکوفة، بدا کأن المختار لم یفاجأ بأخبار هذه [صفحه ۱۸۳] الحملة بقدر ما فاجأه التوقیت. فاستعد للامر ودخل المعرکة بامکانیات محدودة، خاصة وأن قائده الشجاع ابراهیم بن الاشتر کان لا یزال فی الموصل [۳۲۲] لاسباب غیر واضحة تماماً، وربما کانت لابراهیم مسوغاته فی الابتعاد عن الکوفة والانشغال عنها بأمور غیر أساسیة، وأن التزامه فی التحالف مع المختار کان مرحلیاً لیس أکثر، وکان هذا الاخیر یدرک ذلک ویری فی قائده منافساً خطیراً أکثر من مجرد حلیف مخلص.وفی اثناء القتال الذی احتدم فی (حروراء) [۳۲۳] بین کل من الجیشین، برز تفوق الزبیریین بشکل ملحوظ وازداد ضغطهم علی رجال المختار الذین تراجعوا مهزومین، تتبعهم جنود ابن الزبیر. وما لبثت أخبار الکارثة ان وصلت الی المختار الذی اعتصم فی قصر الامارة بعض الوقت، غیر أنه خرج یطلب الموت [۳۲۴] - علی حد تعبیره - بعد أن اشتدت علیه وطأة المحاصرین، فقتل بعد مقاومة بطولیة نادرة، وانطوت فکرة الحکومة الشیعیة فی الکوفة التی غابت معه وکان غیابها طویلاً جداً. [صفحه ۱۸۴] ان سقوط حکومة المختار فی الکوفة لم یؤد الی استسلام حرکة المعارضة العراقیة، وانما استمرت تتصاعد ولکن بقیادات مختلفة وبأهداف ومناهج متباینة. فبعد المختار تسلم الحزب الزبیری السلطة فی العراق بزعامة مصعب، مستفیداً من الظروف التی کانت خیر حلیف فی انهاک قوی العدو وتعبئة القوی الشعبیة بالکراهیة ضد الامویین.ولکن الی أی مدی سیحتفظ هذا الحزب بالسلطة ذلک هو السؤال؟ فقد أصبح النظام الاموی أکثر مناعة واجتاز أزماته العائلیة والقبلیة بعد وصول عبد الملک بن مروان الی الحکم وتطلع الانظار الیه حینئذ لانقاذ الدولة الاموية من انقساماتها واعادة بنائها من جدید قویة، موحدة.وبعد أن قضی هذا الخلیفة بعض الوقت فی تصفیة مشاکله الداخلیة ومعالجة الوضع العسکری علی جبهة البیزنطیین تحول نحو معرکته المصیریة مع منافسه فی الخلافة وشریکه فی اللقب عبد الله بن الزبیر. فلما شعر باستقرار الاحوال فی عاصمة الخلافة قاد بنفسه حملة عسکریة الی العراق صیف ۷۲ هجری [۳۲۵] لتوجیه ضربته الاولی [صفحه ۱۸۵] الی مصعب، فاشتبک معه فی معرکة طاحنة عند (دیر الجاثلیق) فی الجزیرة [۳۲۶] انتهت بهزیمة الجیش الزبیری وحلفائه من العراقیین ومقتل مصعب وقائده الشهیر الذی انضم الیه ابراهیم بن الاشتر.

وكان ذلك ايذاناً برجوع العراق مرة اخرى الى السيادة الاموية ليستكين فترة ثم ينقض من جديد معبراً بمختلف الوسائل السلبية عن رفضه للحكم الاموى وتوقه الى التحرر والاستقلال.وتجدر الاشارة الى أن نضال الحزب الشيعى وهو احدى فصائل المعارضة الاكثر أهمية فى العراق مر بفترة من الركود النسبى وذلك لافتقاده الى المغامرين والقادة العظام فى صفوفه، وفله فى اغتنام الاحداث التى كان من الممكن أن تقوده الى تحقيق طموحاته السياسية لو أحسن استغلالها جيداً. وعلى ذلك ستشهد الفترة المتبقية من الخلافة الاموية تطوراً ملموساً فى نظم الحزب الشيعى وعقائده، وتحولاً بارزاً فى مسيرته النضالية الدائمة. ولكن هذا لم يؤد بأية حال الى تخلى هذا الحزب عن دوره الريادى فى كل الثورات الرافضة التى شهدتها الارض العراقية منذ مصرع الحسين حتى سقوط الدولة الاموية نهائياً على يد احدى الدعوات التى فرزتها الحركة النضالية الشيعية.

پاورقی

[۱] المسعودى: مروج الذهب ۳ / ۳۷ – ۳۸.

[۲] صحيح البخارى ۵/۱۳۷.

[۳] ابن هشام: ۲/۶۰۱.

[۴] اليعقوبى: ۲/۱۱۳.

[۵] اليعقوبى: ۲/۱۲۷، الطبرى: ۳/۲۱۱.

[۶] الطبرى: ۳/۲۰۴.

[۷] مرتضى العسكرى: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى: ۸۷.

[۸] طبرى: ۳/۲۰۷.

[۹] الاوس والخزرج.]

[۱۰] اسيد بن حضير وعويم بن ساعدة. طبرى: ۳/۲۰۹ ابن قتيبة: الامامة والسياسة ۱/۹.

[۱۱] طبرى: ۳/۱۹۸.

[۱۲] طبرى: ۳/۲۰۸.

[۱۳] طبرى: ۳/۱۹۷.

[۱۴] طبرى: ۳/۱۹۵.

[۱۵] ابن قتيبة: الامامة والسياسة: ۱/۶.

[۱۶] لن تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحى من قريش: ابن هشام.

[۱۷] ابن قتيبة: الامامة والسياسة: ۱/۶.

[۱۸] الطبرى: ۳/۲۰۹.

[۱۹] الطبرى: ۳/۲۰۹.

[۲۰] احمد صبحى: نظرية الامامة عند الشيعة الاثنى عشرية، ۲۸ – ۲۹.

[۲۱] سهيل زكار: التاريخ عند العرب، ۹۵ – ۱۱۵.

[۲۲] التراتيب الادارية: ۱/۲ – ۸.

[۲۳] انظر صحيح البخارى: ۵/۱۳۷ – ۱۴۱.

[۲۴] أبو يوسف: الخراج، ۲۸ – ۴۷.

[۲۵] الطبری: ۵/۲۲.

[۲۶] جاء فی تاریخ الطبری ان عبد الرحمن بن عوف بعث فی صبیحة الیوم الثالث لوفاة عمر «الی من حضره من المهاجرین وأهل السابقة والفضل من الأنصار، والی اُمراء الاجناد فاجتمعوا حتی التج المسجد بأهله فقال: ایها الناس، ان الناس قد احبوا ان یلحق اهل الامصار بأمصارهم وقد علموا من أمیرهم، فقال سعید بن زید: انا نراک لها أهلاً، فقال: أشیروا علی بغیر هذا. فقال عمار: ان أردت الا یختلف المسلمون فبایع علیاً، فقال المقداد بن الاسود: صدق عمار، ان بایعت علیاً قلنا سمعنا واطعنا. قال ابن ابی سرح: ان أردت الا تختلف قریش فبایع عثمان: فقال عبید الله بن ابی ربیعة: صدق أن بایعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا. فشتم عمار ابن أبی سرح وقال: متی کنت تنصح المسلمین. فتکلم بنو هاشم وبنو امیة فقال عمار: أیها الناس أن الله عز وجل أکرمنا بنبیه وأعزنا بدینه فأنی تصرفون هذا الامر عن أهل بیت نبیکم! فقال رجل من بنی مخزوم: لقد عدوت طورک یا ابن سمیة، وما انت وتأمیر قریش لانفسها. فقال سعد بن أبی وقاص: یا عبد الرحمن افرغ قبل ان یفتتن الناس، فقال عبد الرحمن: انی قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أیها الرهط علی انفسکم سبیلاً- ودعا علیاً فقال: علیک عهد الله ومیثاقه لتعملن بکتاب الله وسنة رسوله وسیرة الخلیفتین من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمی وطاقتی، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلی، قال: نعم، فبایعه، فقال علی: حبوته حبو دهر لیس هذا أول یوم تظاهرتم فیه علینا فصبر جمیل والله المستعان علی ما تصفون، والله ما ولیت عثمان الا لیرد الامر الیک والله کل یوم هو فی شأن. فقال عبد الرحمن: یا علی لا- تجعل علی نفسک سبیلاً فانی قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لا یعدلون بعثمان، فخرج علی وهو یقول: سیبلغ الکتاب أجله، فقال المقداد: یا عبد الرحمن أما والله لقد ترکته من الذین یقضون بالحق وبه یعدلون، فقال: یا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمین. فقال المقداد: ما رأیت مثل ما أوتی أهل هذا البیت بعد نبیهم، أنی لاعجب من قریش انهم ترکوا رجلاً ما أقول أن أحداً أعلم ولا- أقضی منه بالعدل. فقال عبد الرحمن: یا مقداد اتق الله فأنی خائف علیک الفتنة، فقال علی: أن الناس ینظرون الی قریش وقریش تنظر الی بیتها فتقول: أن ولی علیکم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما کانت فی غیرهم من قریش تداولتموها بینکم» - الطبری: ۵/۳۷ - ۳۸.

[۲۷] فلهوزن: تاریخ الدولة العربیة، ۵۰.

[۲۸] ابن کثیر: ۷/۱۸۰.

[۲۹] بیضون - زکار: تاریخ العرب السیاسی، ۷۶.

[۳۰] ابن کثیر: ۷/۱۷۷.

[۳۱] الیعقوبی: ۲/۱۵۵.

[۳۲] ابن قتیبة: الامامة والسیاسة ۱/۴۹.

[۳۳] Perier Vie Dal - Hadjajadj ibn yousof, P۱۰.

[۳۴] قدوره: عائشة ۲۵۵ - ۲۶۰.

[۳۵] لویس: العرب فی التاریخ ۸۴.

[۳۶] الدینوری: الاخبار الطوال ۱۴۴ - ۱۴۵.

[۳۷] الطبری: ۵/۲۱۵.

[۳۸] ابن الاثیر: ۳/۱۴۰.

[۳۹] Perier Vie Dal - Hadjajadj ibn yousof, P۱۲.

[۴۰] الطبری: ۵/۲۳۲.

[۴۱] المسعودی: مروج الذهب ۲/۳۹۲.

[۴۲] الخربوطلی: تاریخ العراق فی ظل الحکم الاموی ۶۸.

[۴۳] الاصفهانی: مقاتل الطالبیین ۳۴.

[۴۴] راجع صلح الحسن للشیخ راضی آل یاسین ۸۳ وما بعدها.

[۴۵] راجع صلح الامام الحسن للسید محمد جواد فضل الله ۵۱ وما بعدها.

[۴۶] کان من أبرز هؤلاء: الاشعث بن قیس، عمرو بن حریث، معاویة بن خدیج، المنذر بن الزبیر، شبث بن ربعی، اسحق بن طلحة، وعمر بن سعد.

[۴۷] راجع کتاب تاریخ العرب السیاسی (بیضون - زکار): ۸۲.

[۴۸] السید محسن الامین: أعیان الشیعة ۴/۲۲.

[۴۹] الاصفهانی: مقاتل الطالبیین: ۴۰ - ۴۲.

[۵۰] الدینوری: الاخبار الطوال: ۲۳.

[۵۱] الیعقوبی: ۲/۲۵۱.

[۵۲] أعیان الشیعة: ۴/۴۲.

[۵۳] الطبری: ۶/۹۳.

[۵۴] کان من ابرزها: حجر بن عدی الکندی، وقیس بن سعد بن عبادة، وسلیمان بن صرد وغیرهم.

[۵۵] لویس: العرب فی التاریخ ۸۹.

[۵۶] کان من بنودها: ان یکون الامر للحسن بعد معاویة. فان حدث شیء للحسن فلأخیه الحسین، ولیس لمعاویة ان یعهد به الی احد: صلح الحسن ۲۵۳ - ۲۵۴. خالد محمد خالد: ابناء الرسول فی کربلاء ۸۷.

[۵۷] المسعودی: مروج الذهب ۲/۴۲۷.

[۵۸] ابن الاثیر: ۲/۲۵۲.

[۵۹] الخضری: محاضرات فی تاریخ الامم الاسلامیة ۱/۸۹.

[۶۰] ابن الأثیر: ۲/۲۵۲.

[۶۱] فلهوزن: الخوارج والشیعة ۱۴۹.

[۶۲] الطبری: ۶/۱۰۶.

[۶۳] ثابت الراوی: العراق فی العصر الاموی ۱۴۰.

[۶۴] الدینوری: الاخبار الطوال ۲۳۶.

[۶۵] فلهوزن: الخوارج والشیعة ۱۴۹ - ۱۵۰.

[۶۶] الطبری: ۶/۱۴۲.

[۶۷] تاریخ خلیفة ۱/۲۴۱.

[۶۸] تاریخ خلیفة ۱/۲۴۷، سنة خمسین للهجرة.

[۶۹] ابراهیم الابیاری: معاویة ۲۴۴.

[۷۰] ۵۱ للهجرة.

[۷۱] محمد جواد فضل الله: حجر بن عدی الکندی، ۱۲۱ وما بعدها.

[۷۲] تاریخ خلیفة: ۱/۲۵۱.

[۷۳] خالد محمد خالد: ابناء الرسول فی کربلاء ۹۰.

[۷۴] دائرة المعارف الاسلامیة الشیعیة ۲/۴۵.

[۷۵] الدینوری: الاخبار الطوال ۲۲۱.

[۷۶] الدینوری: الاخبار الطوال ۲۲۰.

[۷۷] الطبری: ۶/۱۸۹.

[۷۸] الطبری: ۶/۱۸۹.

[۷۹] الطبری: ۶/۱۸۹.

[۸۰] ابن الاثیر: ۴/۸ – ۹.

[۸۱] خالد محمد خالد: ابناء الرسول فی کربلاء ۱۰۹.

[۸۲] الطبری: ۶/۱۶۹.

[۸۳] المنذر بن الزبیر، ابن الاثیر: ۴/۱۰.

[۸۴] ابن الاثیر: ۴/۱۰.

[۸۵] الطبری: ۶/۲۰۲.

[۸۶] ابن الاثیر: ۴/۱۲.

[۸۷] الطبری: ۶/۲۰۶.

[۸۸] الطبری: ۶/۲۰۸.

[۸۹] مقاتل الطالبیین: ۶۷.

[۹۰] الطبری: ۶/۲۰۸.

[۹۱] الطبری: ۶/۲۱۳، مقاتل الطالبیین: ۷۱.

[۹۲] الطبری: ۶/۲۱۳.

[۹۳] احمد البراقی: تاریخ الکوفة: ۲۸۹.

[۹۴] الطبری: ۶/۲۰۴.

[۹۵] الطبری: ۶/۲۰۷.

[۹۶] دائرة المعارف الاسلامیة الشیعیة ۲/۴۸.

[۹۷] ابن الاثیر: ۴/۱۸.

[۹۸] خالد محمد خالد: ابناء الرسول فی کربلاء ۱۲۷.

[۹۹] الطبری: ۶/۲۲۴.]

[۱۰۰] مقاتل الطالبیین: ۷۳.

[۱۰۱] مقاتل الطالبیین: ۷۴.

[۱۰۲] المکان الذی نزل فیه الحسین.

[۱۰۳] ابن الاثیر: ۴/۲۲.

[۱۰۴] ابن الاثیر: ۴/۲۴.

[۱۰۵] الطبری: ۶/۲۳۷.

[۱۰۶] الطبری: ۶/۲۴۴ – ۲۴۵.

[۱۰۷] ابن الاثیر: ۴/۴۴.

[۱۰۸] الطبری: ۷/۴.

[۱۰۹] البلاذری: انساب الاشراف ۴/۴۳.

[۱۱۰] الیعقوبی: تاریخ الیعقوبی ۲/۲۵۰.

[۱۱۱] الطبری: ۷/۲۵۸.

[۱۱۲] الطبری ۶/۱۸۹.

[۱۱۳] ابن کثیر: البدایة والنهایة ۸/۱۶۳.

[۱۱۴] ابن کثیر: البدایة والنهایة ۸/۱۶۰.

[۱۱۵] الطبری: ۶/۱۶۹ – ۱۹۷.

[۱۱۶] جاء فی وصیة الحسین لاخیه محمد بن الحنفیة: «انی لم اخرج اشراً، ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وانما خرجت لطلب الاصلاح فی امة جدی، ارید ان آمر بالمعروف والنهی عن المنکر، فمن قبلنی بقبول الحق فالله أولی بالحق، ومن رد علی هذا اصبر حتی یقضی الله بینی وبین القوم بالحق، وهو خیر الحاکمین».

[۱۱۷] الخربوطلی: عبد الله بن الزبیر ۹۲.

[۱۱۸] ابن قتیبة: الامامة السیاسة: ۲/۱۰.

[۱۱۹] الشهرستانی: الملک والنحل ۱/۱۶۵.

[۱۲۰] ابن کثیر: البدایة والنهایة ۸/۲۳۹.

[۱۲۱] ابن الاثیر: ۴/۵۲.

[۱۲۲] GABRIELI Les ARABES ۹۱.

[۱۲۳] الطبری: ۷/۱۶ – ۱۷.

[۱۲۴] ابن کثیر: البدایة والنهایة ۸/۲۳۸.

[۱۲۵] الطبری: ۷/۲۴، ابن کثیر: ۸/۲۳۸.

[۱۲۶] الطبری: ۷/۳۲ وما بعدها. ابن کثیر: ۸/۲۳۸.

[۱۲۷] الدینوری: الاخبار الطوال ۲۸۰.

[۱۲۸] ابن کثیر: البدایة والنهایة ۸/۲۳۹.

[۱۲۹] الطبری: ۷/۳۰.

[۱۳۰] فلهوزن: تاریخ الدولة العربیة ۱۶۶.

[۱۳۱] بیضون – زکار: تاریخ العرب السیاسی ۱۳۹.

[۱۳۲] فلهوزن: تاریخ الدولة العربیة ۱۷۵.

[۱۳۳] تاریخ خلیفة: ۱/۳۲۶.

[۱۳۴] تاریخ خلیفة: ۱/۳۲۶.

[۱۳۵] F. GABRIELI LES Arabes ۹۱.

[۱۳۶] البلاذری: انساب الاشراف ۴/۶۴.

[۱۳۷] الطبری: ۷/۴۷.

[۱۳۸] الطبری: ۷/۴۷.

[۱۳۹] فلهوزن: الخوارج الشیعة ۱۸۹، الطبری ۷/۴۸.

[۱۴۰] ورد فی البدایة والنهایة: ابن نجیه ۸/۲۴۷.

[۱۴۱] الطبری ۷/۴۷، ابن کثیر ۸/۲۴۷.

[۱۴۲] ابن کثیر: ۸/۲۴۷.

[۱۴۳] الطبری: ۷/۴۸.

[۱۴۴] القرآن الکریم: ۵۴ البقرة ۲، الیعقوبی ۲/۲۵۷.

[۱۴۵] ابن کثیر: ۸/۲۴۷.

[۱۴۶] دائرة المعارف الاسلامیة ۱۲/۱۷۱.

[۱۴۷] البلاذری: انساب الاشراف، ۲/۲۷۲.

[۱۴۸] الطبری: ۶/۱۹۷.

[۱۴۹] الطبری: ۷/۴۸.

[۱۵۰] الطبری: ۷/۴۸.

[۱۵۱] الطبری: ۷/۴۸.

[۱۵۲] الطبری: ۷/۴۹.

[۱۵۳] من خطاب سلیمان فی المؤتمر، الطبری ۷/۴۹.

[۱۵۴] الطبری ۷/۴۸.

[۱۵۵] الطبری: ۷/۵۱.

[۱۵۶] الخربوطلی: تاریخ العراق فی ظل الحکم الاموی ۱۳۳.

[۱۵۷] النخیلة: مکان بالقرب من الکوفة.

[۱۵۸] ابن کثیر: ۸/۲۴۷، الطبری: ۷/.

[۱۵۹] ابن کثیر: ۸/۲۴۷.

[۱۶۰] الطبری: ۷/۵۰.

[۱۶۱] الطبری: ۷/۵۰.

[۱۶۲] الطبری: ۷/۵۱.

[۱۶۳] دائرة المعارف الاسلامیة الشیعیة ۲/۵۷.

[۱۶۴] الطبری: ۷/۵۱.

[۱۶۵] دائرة المعارف الاسلامیة الشیعیة: ۲/۵۸.

[۱۶۶] ابن کثیر: ۸/۲۴۷. ینفرد البلاذری فی انساب الاشراف بقوله أن التوابین قدّموا موعد الخروج الی سنة ۶۴ هجری حین علموا بوفاة یزید.

[۱۶۷] ابن کثیر ۴/۶۸.

[۱۶۸] الطبری: ۷/۵۲.

[۱۶۹] ابن کثیر: ۷/۵۳.

[۱۷۰] فلهوزن: الخوارج والشیعة ۱۹۰.

[۱۷۱] ابن کثیر: ۸/۲۴۸.

[۱۷۲] فلهوزن: الخوارج والشیعة ۱۹۰.

[۱۷۳] الطبری: ۷/۵۳، ابن کثیر: ۸/۲۴۸.

[۱۷۴] الطبری: ۷/۵۳، ابن کثیر: ۸/۲۴۸.

[۱۷۵] الطبری: ۷/۵۳.

[۱۷۶] بیضون: زکار: تاریخ العرب السیاسی ۱۱۴ – ۱۱۵.

[۱۷۷] فلهوزن: للخوارج والشیعة ۱۹۸.

[۱۷۸] الیعقوبی: ۲/۲۵۸، ابن کثیر:۸/۲۴۹.

[۱۷۹] ابن کثیر: ۲/۲۴۹.

[۱۸۰] هانی بن ابی حیة الوادعی، الطبری ۷/۶۳.

[۱۸۱] الطبری: ۷/۶۳.

[۱۸۲] الطبری: ۷/۶۳.

[۱۸۳] ۲۵ J Perier vie Dal-hadjdadj.

[۱۸۴] یتفق معظم المؤرخین علی ان المختار خرج من الحجاز باسم الدعوة لمحمد بن الحنفیة، الیعقوبی ۲/۲۵۸، الطبری ۷/۶۴.

[۱۸۵] ابن کثیر: ۸/۲۵۰.

[۱۸۶] فلهوزن: الخوارج والشیعة ۲۰۴.

[۱۸۷] ابن الاثیر: ۴/۷۲.

[۱۸۸] عمر بن سعد بن ابی وقاص، شبث بن ربعی، یزید بن الحارث بن رویم. طبری ۷/۶۵، ابن الاثیر ۴/۷۳.

[۱۸۹] طبری: ۷/۶۵، ابن الاثیر: ۴/۷۳.

[۱۹۰] طبری ۷/۶۶، ابن الاثیر ۴/۷۳، ابن کثیر ۸/۲۵۰.

[۱۹۱] کان من ابرز الـدعاة حماسـة واندفاعاً عبد الله المری الذی کان یردد: «ویل للقاتل وملامة للخاذل! ان الله لم یجعل لقاتله حجة، ولا لخاذله معـذرة – الا ان یناصح الله فی التوبة فیجاهد القاتلین وینابذ القاسـطین. فعسـی الله عند ذلک أن یقبل التوبة ویقیل العثرة. انا ندعوکم الی کتاب الله وسنة نبیه والطلب بدماء أهل بیته، والی جهاد المحلین والمارقین» الطبری: ۷/۵۲.

[۱۹۲] الطبری: ۷/۵۵.

[۱۹۳] ابن کثیر: ۸/۵۵۱.

[۱۹۴] ابن الاثیر: ۴/۷۴.

[۱۹۵] الفتوح لابن الاعثم الکوفی (مخطوطة).

[۱۹۶] قیل ان عدد المتطوعین ارتفع الی نحو عشرین الفاً. ابن کثیر ۸/۲۵۱.

[۱۹۷] ابن کثیر: ۸/۲۵۱.

[۱۹۸] ابن الاثیر: ۴/۷۴.

[۱۹۹] ابن الاثیر: ۴/۶۸.

[۲۰۰] الطبری: ۷/۶۸.

[۲۰۱] رد سلیمان علی عبد الله بن سعد بن نفیل، الطبری: ۷/۶۸، ابن الاثیر: ۴/۷۴.

[۲۰۲] دائرة المعارف الاسلامیة الشیعیة ۲/۵۸.

[۲۰۳] الطبری: ۷/۶۷.

[۲۰۴] الطبری: ۷/۶۷، ابن الاثیر: ۸/۲۵۲.

[۲۰۵] الفتوح لابن الاعثم الکوفی، نسخة اسطنبول، (مخطوطة).

[۲۰۶] الطبری: ۷/۶۹.

[۲۰۷] الطبری: ۷/۶۹.

[۲۰۸] الفتوح لابن الاعثم الکوفی، (مخطوطة) ۱/۲۵۵ – ۲۶۷ – نسخة اسطنبول.

[۲۰۹] الطبری: ۷/۶۸، ابن الاثیر ۴/۷۴.

[۲۱۰] عبد الله بن یزید الانصاری.

[۲۱۱] الطبری: ۷/۵۳.

[۲۱۲] الطبری: ۷/۵۳.

[۲۱۳] الطبری: ۷/۵۴.

[۲۱۴] الخربوطلی: تاریخ العراق فی ظل الحکم الاموی ۱۳۵ – ۱۳۶.

[۲۱۵] الطبری: ۷/۶۹.

[۲۱۶] الطبری: ۷/۶۹.

[۲۱۷] الفتوح لابن الاعثم الکوفی (مخطوطة) ۲۶۰ – نسخة اسطنبول.

[۲۱۸] الطبری: ۷/۷۱ – ۷۲.

[۲۱۹] الطبری: ۷/۷۲.

[۲۲۰] الطبری: ۷/۷۲.

[۲۲۱] الطبری: ۷/۷۲.

[۲۲۲] القرآن الکریم: التوبة ۱۱۱.

[۲۲۳] الفتوح لابن الاعثم الکوفی ۲۶۰. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

[۲۲۴] الفتوح لابن الاعثم الکوفی ۲۶۰. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

[۲۲۵] ابن الاثیر: ۴/۷۵.

[۲۲۶] البصیرة حالیاً فی سوریا، عند مصب الخابور علی الفرات.

[۲۲۷] ابن کثیر: ۸/۲۵۲ – ۲۵۳.

[۲۲۸] الطبری: ۷/۷۴.

[۲۲۹] الطبری: ۷/۷۲.

[۲۳۰] ابن الاثیر: ۴/۷۵.

[۲۳۱] الطبری: ۷/۷۳.

[۲۳۲] الطبری: ۷/۷۳.

[۲۳۳] الطبری: ۷/۷۳، ابن الاثیر: ۴/۷۵.

[۲۳۴] الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخهٔ اسطنبول (مخطوطهٔ).

[۲۳۵] ابن الاثیر: ۴/۷۵.

[۲۳۶] الطبری: ۷/۷۳.

[۲۳۷] رأس عین تنبع علی بضعهٔ أمیال الی الشمال من قرقیسیا علی نهر الفرات، ابن الاثیر: ۴/۷۶، جون جلوب: امبراطوریهٔ العرب ۱۳۴.

[۲۳۸] الطبری ۷/۷۳ – ۷۴، ابن الاثیر: ۴/۷۶.

[۲۳۹] ابن الاثیر الخ: ۸/۲۵۳.

[۲۴۰] الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخهٔ اسطنبول (مخطوطهٔ).

[۲۴۱] الطبری: ۷/۷۴.

[۲۴۲] الطبری: ۷/۷۴.

[۲۴۳] المکان الذی استشهد فیه الحسین ورفاقه فی کربلاء.

[۲۴۴] الطبری: ۷/۷۴، ابن الاثیر: ۴/۷۶.

[۲۴۵] ۳ رمضان سنهٔ ۶۵ هجری. تاریخ خلیفهٔ ۱/۳۳۱.

[۲۴۶] الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخهٔ اسطنبول (مخطوطهٔ).

[۲۴۷] تاریخ خلیفهٔ ۱/۳۳۱.

[۲۴۸] الطبری: ۷/۷۵.

[۲۴۹] ثابت الراوی: العراق فی العصر الاموی ۱۷۰.

[۲۵۰] البلاذری: انساب الاشراف ۵/۲۱۷. الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخهٔ اسطنبول (مخطوطهٔ).

[۲۵۱] جاء فی البدایهٔ والنهایهٔ: خمسمائهٔ فارس، ابن کثیر: ۸/۲۵۳.

[۲۵۲] الطبری: ۷/۷۵، ابن الاثیر ۴/۷۶.

[۲۵۳] الطبری: ۷/۷۵، ابن الاثیر: ۴/۷۶.

[۲۵۴] الطبری: ۷/۷۵، ابن الاثیر: ۴/۷۶.

[۲۵۵] ابن کثیر: ۸/۲۵۴.

[۲۵۶] فلهوزن: الخوارج والشیعهٔ ۱۹۵.

[۲۵۷] الفتوح لابن الاعتم الکوفی. نسخهٔ اسطنبول. (مخطوطهٔ).

[۲۵۸] الطبری: ۷/۷۶.

[۲۵۹] قدر عدد الجیش الاموی الذی اشترک باثنی عشر الفاً، کان علی رأسه الحصین بن نمیر السکونی. ابن الاثیر: ۸/۲۵۴.

[۲۶۰] الطبری: ۷/۷۶.

[۲۶۱] الطبری: ۷/۷۶.

[۲۶۲] المسعودی: مروج الذهب ۳/۹۴.

[۲۶۳] الجمعهٔ فی ۲۴ جمادی الاول ۶۵ هجری / ۶ کانون الثانی ۶۸۵ م. المسعودی: مروج الذهب: ۳/۹۴.

[۲۶۴] جون جلوب: امبراطوریهٔ العرب ۱۳۵.

[۲۶۵] الطبری: ۷/۷۶.

[۲۶۶] ابن کثیر: ۸/۲۵۵.

[۲۶۷] الطبری: ۷/۷۶ – ۷۷.

[۲۶۸] ابن کثیر: ۸/۲۵۴.

[۲۶۹] جون جلوب: امبراطوریة العرب ۱۳۶.

[۲۷۰] ابن کثیر: ۸/۲۵۴.

[۲۷۱] جون جلوب: امبراطوریة العرب ۱۳۶.

[۲۷۲] الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

[۲۷۳] الطبری: ۷/۸۰.

[۲۷۴] ابن الاثیر: ۴/۷۸.

[۲۷۵] الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

[۲۷۶] الفتوح لابن الاعثم الکوفی. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

[۲۷۷] ابن الاثیر: ۴/۷۸.

[۲۷۸] الطبری: ۷/۶۶.

[۲۷۹] المسعودی: مروج الذهب ۳/۹۴.

[۲۸۰] «رأوا انهم لا یغسل عنهم ذلک الجرم، الا قتل من قتله او القتل فیه» مروج الذهب ۳/۹۳.

[۲۸۱] ابن الاثیر: ۴/۸۹.

[۲۸۲] الطبری: ۷/۹۴.

[۲۸۳] الطبری: ۷/۹۴.

[۲۸۴] الطبری: ۷/۹۰ – ۹۱.

[۲۸۵] فلهوزن: الخوارج والشیعة ۲۰۳ – ۲۰۴.

[۲۸۶] ابن کثیر: ۸/۲۶۵.

[۲۸۷] المسعودی: مروج الذهب ۳/۷۴.

[۲۸۸] ابن کثیر: ۸/۲۶۴.

[۲۸۹] ابن الاثیر: ۴/۸۹.

[۲۹۰] ابن کثیر: ۸/۲۶۸.

[۲۹۱] الطبری: ۷/۹۸ – ۹۹.

[۲۹۲] ابن کثیر: ۸/۲۶۶.

[۲۹۳] ابن کثیر ۴/۹۱.

[۲۹۴] «ایاس بن مضارب»، ابن الاثیر ۴/۸۹.

[۲۹۵] الطبری: ۷/۱۰۰.

[۲۹۶] الطبری: ۷/۱۰۰.

[۲۹۷] شبث بن ربعی.

[۲۹۸] الطبری ۷/۱۰۳.

[۲۹۹] ابن کثیر: ۸/۲۶۷.

[۳۰۰] ابن الاثیر: ۴/۹۴.

[۳۰۱] دائرة المعارف الاسلامیة الشیعیة: ۲ / ۵۹.

[۳۰۲] ابن الاثیر: ۴/۹۵.

[۳۰۳] ابن کثیر: ۸/۲۶۸.

[۳۰۴] الطبری: ۷/۱۰۸ – ۱۱۰.

[۳۰۵] فلهوزن: الخوارج والشیعة: ۲۱۵.

[۳۰۶] ابن کثیر: ۸/۲۶۸.

[۳۰۷] الطبری: ۷/۱۱۳ – ۱۱۴.

[۳۰۸] الطبری: ۷/۱۱۵.

[۳۰۹] فلهوزن: الخوارج والشیعة: ۲۱۸.

[۳۱۰] ابن کثیر: ۸/۲۶۹.

[۳۱۱] بیضون – زکار: تاریخ العرب السیاسی ۱۱۷.

[۳۱۲] ابن کثیر: ۸/۲۷۰.

[۳۱۳] ابن الاثیر: ۴/۹۸.

[۳۱۴] الطبری: ۷/۱۲۰.

[۳۱۵] الطبری: ۷/۱۲۰.

[۳۱۶] جون جلوب: امبراطوریة العرب ۱۵۳ – ۱۵۴.

[۳۱۷] رافد للزاب الکبیر.

[۳۱۸] فی الشهر الاول من سنة ۶۷ للهجرة، ابن الاثیر: ۴/۱۰۹.

[۳۱۹] الطبری: ۷/۱۴۴.

[۳۲۰] الطبری: ۷/۸۰ – ۸۱.

[۳۲۱] ابن الاثیر: ۴/۱۱۲.

[۳۲۲] فلهوزن: الخوارج والشیعة: ۲۲۹.

[۳۲۳] ابن الاثیر: ۴/۱۱۳.

[۳۲۴] قال لاصحابه وهو خارج الی القتال: ان الحصار لا یزیدنا الا ضعفاً، فانزلوا بنا نقاتل حتی اللیل ونموت کراماً. ابن الاثیر: ۸/۲۸۸.

[۳۲۵] ضیاء الدین الریس: عبد الملک بن مروان: ۲۱۰.

[۳۲۶] المسعودی: مروج الذهب: ۳/۱۰۷ – ۱۰۹.

تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ

كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹